الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية

جامعة غرداية

منطقة وادي ميزاب في كتابات الأجانب الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر ميلادي/ الثالث عشر هجري

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة ماستر تخصص تاريخ المغرب العربي الحديث

من إعداد الطالبة

مروة عوابد

تحت إشراف الأستاذ

أ.د. ناصر بلحاج

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د السعيد أبو بكر	رئيسا
أ.د ناصر بلحاج	مشرفا ومقررا
أ.د موسى تريعة	مناقشا

للموسم الجامعي: 2021م/2022م

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

"إِنَّ التَّارِيخَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَنْ الإِخبَار، وَلَكِنْ فِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ"

ابن خلدون

الإهـــداء

إلى التي أفنت عمرها لأجلي، إلى نور عيني، إلى من وهبت نفسها في سبيل سعادتي ولأجل أن أصل إلى ما أنا عليه اليوم، إلى والدتي، أمي وبوابة جنّتي زهرة كربيش.

إلى الذي كان دوما سندي وأبداً أمني وأماني، إلى الذي ما ادّخر جهدا في سبيل راحتي ولم يبخل علي بكل ما رغبت، إلى والدي، إلى مصدر فخري عمر عوابد.

إلى جميع أقاربي، عائلتي عوابد وكربيش

أعمامي: إبراهيم، موسى، عيسى

أخوالي: محمّد، بلقاسم

إلى أصدقائي وكل زملائي في دفعة ثانية ماستر تاريخ المغرب الحديث 2021 م / 2022 م

إليكم جميعكم، أهدي ثمرة جهدي المتواضع هذا كعربون اعترافٍ بالجميل وشكر لكل ما قدّمتموه لي لأصل اليوم إلى هدفي ولأبلغ مرامي وأضع أولى خطواتي في طريق مستقبلي

بارك الله قلوبكم وأسعد أرواحكم وملأ قلوبكم سعادة ورضاً

مني أنا، ابنتكم، مروة...؛

الشكـــر

إلى أستاذي المشرف (**ناصر بلحاج**) الذي لم يبخل عليّ بإشرافه القيّم، نصائحه الثمينة وتوجيهاته الرشيدة وصبره وتفانيه لأجل أن يتم هذا العمل

إلى الأستاذة (**رحيمة بيشي**) التي لم تدّخر جهدا في توجيهي وجادت عليّ بوقتها وجهدها في سبيل إتمام هذا العمل

إلى السيّدة (**سعيدة بوغرارة**)، مسؤولة مركز الأرشيف الصحراوي لولاية غرداية التي كانت عونا كبيرا ومنحتني كل ما قد احتجته لإنجاز هذا العمل

إلى كل من الأخ (**بن حويط مراد**) والأخت (**بن النذير أسماء**) الذين أعاناني أثناء إنجاز هذا العمل ووجهاني فيه وأسنداني لإتمامه

إلى جميع من ساهم من قريب أو بعيد، بالكثير أو القليل في سبيل إنجاز هذه المذكّرة وإتمامها على أحسن وجه

أتقدم إليكم بهذا العمل عرفانا لكم بسابق فضلكم وجزيل عطائكم وشكراً لكم على كل ما بذلتموه من أجل أن يبصر هذا العمل النور ويُنجَزَ على تمام أوجهه راجية من المولى عزّ وجلّ أن يبارك جهودكم ويشكر صنيعكم ويسبغ عليكم نعمه دائما أبدا...؛

قائمة الرموز والاختصارات

الرقم	الرمز	الاختصار
01	ص	صفحة
02	ط	الطبعة
03	تح	تحقيق
04	ب ط	بدون طبعة
05	ج	جزء
06	ب م ن	بدون مكان نشر
07	**Ibid**	المرجع السابق
08	**pp**	**Page**

مقدّمة

التعريف بالموضوع

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالصَّلاَةِ وَالسَّلاَمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ أشرف خلقه و خاتم الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، مُحَمَّد الهادي الأمين الذي نصح الأمة وكشف الغمة ومحا الله به الظلمة، وتركنا على المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

أما بعد، ونحن ندرس التاريخ الحديث في منطقة المغرب العربي لابد لنا أن نمر على تاريخ الجزائر الذي لا يمكن إهماله، لاسيما وأن الفترة الحديثة تمثل جزءا مهما جدا حدثت خلاله تحولات كبيرة ساهمت في تغيير وجه تاريخ المنطقة ككل وتاريخها المحلي على وجه الخصوص.

بين أيدينا اليوم موضوع بحث مرتبط بمسقط رأسي، متعلّق بالمنطقة التي ولدتُ وترعرعتُ فيها،يتناول التاريخَ المحلي لها ويهتم بدراسة جزء غامضٍ من هذا التاريخ، جزءٌ خيَّمتْ عليه التساؤلات وطُرِحت حوله الفرضيات ولازال إلى الآن قيد الدراسة وموضع اهتمام وبحث؛ منطقة وادي ميزاب وتاريخها.

كيف هي منطقة وادي ميزاب من خلال آراء الأجانب الأوروبيين،ماذا كتبوا حولها؟ وما هو الانطباع الذي أعطوه عنها؟ ونحن بدورنا، ندرك جيدا ماذا يمكن أن يكتب شخص أجنبي عن مكان ما يزوره ويستكشفه أول مرة، إذ تكون كتاباته تلك على قدر من الاختلاف والحداثة، فنظرته كزائر وكسائح أو حتى كعالم مختص في مجال معين تختلف عن مثيلتها لدى ساكن الأرض وصاحبها بحيث إن لكل منهما زاوية يرى من خلالها ومنظورا يقيّم من خلاله كل ما له علاقة بالمنطقة التي يتواجد بها.

وادي ميزاب،منطقة تُعدُّ مميزة جدا سواءٌ خلال أولى فترات تأسيسها ونشأتها، وحتى خلال تطورها أو سواء اليوم في حاضر الأيام، فلطالما تميّز وادي ميزاب لمقوماته العمرانية والبشرية وعاداته وتقاليده الاجتماعية ونظمه الاقتصادية وأحكامه السياسية حيث قدّم ولا زال يقدم المجتمع الميزابي نموذجا لمجتمع حضري صحراوي أو "مجتمع مديني" من مدن الجزائر العثمانية الداخلية خلال الفترة ما بين القرن السابع عشر إلى اليوم.

حدود الزمان والمكان:

تنحصر فترة الدارسة خلال القرن التاسع عشر ميلادي أي خلال الفترة 1800م، إذ يمكن اعتبار هذه الفترة مرحلة تشكل منطقة ميزاب ونشأتها وارتسام ملامحها كمدينة كاملة وككيان اجتماعي قائم بذاته مستقل بنفسه.

أما على الصعيد المكاني، فمنطقة وادي ميزاب هي إحدى الرقع الجغرافية الواقعة شمال الصحراء الجزائرية الكبرى وتتميز بطبيعتها القاسية ومناخها الصعب، تتخللها أودية عديدة لا يتعدى عمقها المائة متر. تقدّر مساحة منطقة وادي ميزاب بحوالي ثمانية وثلاثين ألف كيلومتر مربع (38000 كم^2)، يحدّها شمالا وادي بوزبير، غربا وادي زرقون، وتمتد شرقا إلى زلفانة والقرارة وتختلط جنوبا مع بلاد الشعانبة، مركزها حاليا غرداية وتبعد بخط مستقيم عن الجزائر العاصمة ب 490 كم[1].

لإثراء فهمنا لموضوع المعنون دراستنا

منطقة ميزاب في كتابات الأجانب الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر ميلادي/ الثالث عشر هجري والذي بالمناسبة تعمّدنا اختياره عنوانا شاملا حتى يتوافق أثناء بحثنا عنوان الدراسة بمضمونها، وحتى لا نكون في أثناء الاستنتاج مقيّدين بمجالات محددة تجعل من الفائدة محصورة بسبب أطر لفظية أو دلالات اصطلاحية كنتيجة اختيار غير الموفق للعنوان وعليه، فإنّه يجب علينا فهم العنوان الذي اخترناه أوّلا ليسهل لنا بهذا كل ما يليه.

لذلك فإننا وكبداية، نتطرّق إلى شرح مصطلح الأجانب وما دلالاته اللغوية والاصطلاحية وماذا يمكن أن ينطوي عليه من مفاهيم وألفاظ لها علاقة ببحثنا هذا.

فلغةً، حسب ما جاء في معجم المعاني الجامع في شرح لفظ الأجنبي، فإنّه يقصد بها "من لا تعلق له به ولا معرفة؛ الأجنبي من لا يتمتع بجنسية الدولة[2]. وفي القاموس المحيط "والأجنبي والأجنب الذي لا ينقاد،

---

[1] – يوسف بن بكير حاج سعيد، تاريخ بني ميزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، الطبعة 4، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 2017 , ص 1 .

[2] – موقع المعاني الجامع، http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%A3%D8%AC%D9%86%D8%A8%D9%8A/؛ 23.08.2022، 20:11.

والغريب"[1] أما في لسان العرب فورد مصطلح الأجنبي مشتقا من الجنب فجاء فيه "رجل جانب وجنب: غريب، والجمع أجناب...ورجل أجنب وأجنبي وهو البعيد منك في القرابة...والجنيب: الغريب، وجنب فلان في بني فلان يجنب جنابة ويجنب إذا نزل فيهم غريبا"[2]

اصطلاحا، لدينا في مصطلح الأجنبي من يقول بأن "الأجنبي في الدولة هو من لا يتمتع بالصفة الوطنية فيها وبعبارة أخرى هو كل من لا يحمل جنسيتها وفقا للأحكام قانون الجنسية...فالأجنبي عن مجتمع معين هو كل من لا يعتبر عضوا فيه..."[3]

وعليه، فمن جملة مفاهيم ما سبق عن لفظ الأجنبي، والذي يرد في المعاجم بأصل كلمة جنب، فهو عموما يعني كلّ شخص ليس من القوم وغريبا عنهم وبمفهومنا الحالي فالأجنبي هو من لا ينتمي للدولة أو لا تربطه بها علاقة فلا بعد منها ولا يعتبر واحدا من أهلها ومواطنيها. وربطا بموضوعنا، فالأجانب هم جميع من لا ينتمون إلى الجزائر بصفة عامة وبالتالي فهم لا ينتمون لمنطقة ميزاب ويعدّون غرباء عنها.

وبما أن الأجانب في دراستنا أوروبيون فهم يندرجون تحت راية المستشرقين ذلك أنهم غرباء عن البلد ومتخصصون في البحث والاستكشاف من وجهة نظر غربية. والاستشراق بمفهومه اللغوي والاصطلاحي نذكره كما يلي:

لغة: "وهو مشتق من مادة (شَرْق) عكس الغرب، ومنه مَشرق الشمس. فمعنى الاستشراق لغة طلب الشرق"[4]

---

[1] – الفيروزآبادي مجدالدين مُحَمَّد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح:مُحَمَّد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت – لبنان، ص69.

[2] – ابن منظور، لسان العرب، تح: عبدالله على الكبير؛ مُحَمَّد أحمد حسب الله؛ هاشم مُحَمَّد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة – مصر، ص692.

[3] – د. شحاتة أبو زيد شحاتة، مبدأ المساواة في الدساتير العربية في دائرة الحقوق والواجبات العامة وتطبيقاتها القضائية، دار النهضة العربية، مصر، 2001، ص366.

[4] – د.الزياي مُحَمَّد فتح الله، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط1، 1984، ص55.

كلمة استشراق من مادّة (شَرَقَ)، وفي لسان العرب لابن منظور ورد أن "شَرَقَ، شرقت الشمس تشرق شروقا وشرقا: طلعت واسم الموضع المِشْرِقُ. يقال شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. وأشرق وجه فلان ولونه: أسفر وأضاء وتلألأ حسنا"[1]

اصطلاحا: "كل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصا بعلم الإنسان (الإنثربولوجي) أو بعلم الاجتماع، أو مؤرخا (فيولولوجيا) في جوانبه المحددة والعامة على حد سواء، هو مستشرق، وما يقوم به هو أو هي بفعله هو استشراق"[2]

وعليه فالكتابات في موضوعنا هنا تدخل تحت لواء الاستشراق أي أنها بقلم من ليسوا من الجزائر ولا يُحسَبون منها وعليه فكتابتهم عن ميزاب تعد كتابات وآراء غربية عن مجتمع شرقي جزائري على وجه الخصوص قام بكتابتها أصحابها بإشراف من الحكومة الفرنسية أثناء أولى مراحل احتلالها للجزائر إذ كان الهدف الأول من جميع الاكتشافات وبالتالي الكتابات والمؤلفات هو الإحاطة بالأرض وبالتالي تسهيل مهمة السيطرة عليها واحتلالها.

دوافع اختيار الموضوع:

بالحديث عن دوافع اختياري لهذا الموضوع بالذات، فإنّه في حقيقة الأمر هو موضوع بحثا لسنة الفارِطة أولى ماستر، تاريخ المغرب العربي الحديث في مقياس تاريخ الجزائر الحديث،خلال الفصل الثاني والذب كان مسنداً من طرف الأستاذة الفاضلة **بيشي رحيمة؛** ولأنه موضوع أثار فضولي وأجج غريزة المعرفة والبحث لدي، فقد اخترت أن أواصل عملي عليه كمشروع مذكرة الماستر،إضافة إلى أنني عندما وجدت أن الموضوع محلي وله علاقة بالمنطقة التي أنا متواجدة بها طوال حياتي وكوني طالما كنت شخصا يميل للدراسات المحلية ويعتبرها إنجازا كبيرا إذ أنّ الغوص في التاريخ المحلي لأي منطقة ليس بالأمر السهل بالنسبة للمؤرخ لاسيما وأنه يتحمل المسؤولية الكاملة بالنسبة للحقيقة التاريخية المَحَصَّلِ عليها سواء كانت

[1] – ابن منظور، المرجع نفسه، ص244-245.

[2] – سعيد إدوارد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط2، بيروت – لبنان، 1995، ص38.

مطابقة لما سبقها من نتائج بحثية أم تحمل شيئاً جديدا، وبهذا التنوع في البحث والتعدد في استخلاص النتائج والحقائق،يمكن جعل الصورة كاملة بالنسبة للقراء والمؤرخين على حد سواء، فالتاريخ دائما لا يؤخذ من وجه واحد ونظرة متفردة إنما من أوجه متعددة ونظرات مختلفة وآراء متنوعة.

بتناولي موضوع هذه المذكرة ولأنّ الإنسان ابن بيئته، وإلى جانب أن اختيار الموضوع كان شخصيا ولم يتم إسناده لي من طرف الإدارة في إطار المواضيع التي تقترحها مواضيعا لمذكرات التخرج لدرجة الماستر، فإني أحاول من خلاله إضافة القليل إلى الموضوع من خلال بحثي فيه ودراستي له كإثراء لتاريخ المنطقة التي أنا جزء منها وعضو في مجتمعها وكمساهمة متواضعة في زيادة حظها من الاهتمام التاريخي والدراسة العلمية.

أهمية الدراسة:

عندما نتناول دراسة محلية، فأغلب أهداف الدراسة تدور حول نقاط نلخص بعضها كالتالي:

- التّعرف عن كثب على تاريخ المنطقة إذ غالبا ما تكون المعلومات قليلة ونادرة وأحيانا مجهولة بالنسبة لمصادر الحصول عليها، وعليه فإن تاريخ منطقة المغرب العربي عامة والتاريخ المحلي للجزائر خاصة يضلّ على قدر من الإبهام والصعوبة من الدراسة بسبب ندرة مصادره وصعوبة الوصول إليها.
- الاستعانة بما يمكن إضافته للموضوع من وجهة نظر الأجانب الأوروبيين وبالتالي الأخذ برؤية مقابلة وزاوية أخرى من التاريخ وعدم الاكتفاء بنظرة المؤرخين المحليين للتاريخ؛ فلا يمكن لمؤرخ أن يُهمِل البحث والدراسة ويتخلى عن عملية التمحيص والتدقيق في تاريخ منطقته ويذهب إلى دراسة تاريخ منطقة أخرى لا علاقة له بها بدعوى تعذر البحث أو قلة المصادر أو صعوبة الحصول على المعلومات أو لمجرد وجود وسائل بحث متاحة أو كان للموضوع مصادر متعددة وكانت مهمة الحصول عليها يسيرة، إذ بهذا يكون الباحث المؤرخ أو حتى مجرد الدارس لا يهتم بالبحث في جوهره إنما لأسباب أخرى مهما كانت وعليه وكنتيجة حتمية لهذا الإهمال فإن الحقيقة ستظل دائما في غياهب الظلام ولن ترى طريقها للنور والعلم أبداً.

إثراء البحث وتزكية المعلومات حول تاريخ منطقة وادي ميزاب الذي لا يزال إلى اليوم موضع اهتمام ومصدرا مهما للبحث والاكتشاف والدراسة.

إشكالية الدراسة:

بالنسبة للإشكالية الرئيسية لموضوع بحثنا فيمكننا تجسيدها كالتالي : كيف كانت صورة منطقة وادي ميزاب في عدسة ومجهر الأجانب الأوروبيين؟ بهذا إننا نقصد كيف وماذا كتب الأجانب عن منطقة وادي ميزاب خلال رحلاتهم إليها لمختلف الأسباب في الفترة تاسع عشر ميلادي (1800م)؟

أما إشكاليات فرعية نضيفها كدعائم للدراسة نطرحها بشكل تساؤلي يتمثل في:فيما تتمثل منطقة وادي ميزاب وما أصل تسميتها بوادي ميزاب من الأساس؟ كيف تأسست ونشأت وما مراحل تطورها؟ ما جذورها التاريخية ومن أين ينحدر سكانها؟ ما هي صفاتها الاجتماعية لقاطنيها وما هو شكل نظمها السياسية والاقتصادية؟ في كتابات هؤلاء الأجانب .

خطة البحث:

إن إستراتيجيتنا للبحث في هذا الموضوع تمثلت في خطة دراسية أولية قابلة اتبعنا فيها هيكلة من ثلاث فصول، كل فصل به يضم ثلاث مباحث.

في الفصل الأول لدينا نظرة عامة عن منطقة وادي ميزاب والموقع الجغرافي لها مقسم إلى ، وفيها ثلاث مباحث: المبحث الأول يهتم بجانب الدراسة الجغرافية بعنوان نظرة عامة عن منطقة واد ميزاب، تحدثنا فيه عن موقعها الجغرافي، هيكلتها الجيولوجية ومميزاتها المناخية ومقوماتها الطبيعية. في المبحث الثاني والذي يمثل دراسة إثنية وحضارية وفيه لمحة تاريخية عن بلاد الشْبكة فصلنا فيه أصل تسمية منطقة ميزاب بذلك وأصول سكانها؛ أما في المبحث الأخير فلمحة ونظرة عن قصور وادي ميزاب وتاريخ تأسيسها ونشأتها.

في الفصل الثاني المعنون بكتابات وآراء الأجانب عن منطقة ميزاب، والذي قسمناه بدوره إلى ثلاث مباحث أولها مبحث عن كتابات السيد جوزيف دوماس عنها وثانيها مبحث من خلال قلم السيد بول سولاييه أمّا المبحث الثالث فبقلم السيد زيس والتي من أعطى كل منهم نظرته عن المنطقة وانطباعاته بعد زياراته إليها لمختلف الأهداف.

أما الفصل الثالث والأخير،فهو الآخر مقسم إلى ثلاث مباحث تطرقنا فيها إلى دراسة المنطقة من خلال كتابات أجانب آخرين أولهم إيميل ماسكوراي يتلوه في المبحث الثاني كتابات السيد موتيلانسكي أما المبحث الأخير فقلم السيد جوزيف هيغوت من خلال مقالاته.

في المبحث الثاني من الفصل الأخير عمدتُ إلى اختيار كتاب "القرارة منذ نشأتها" إذ أنني وبدافع الشغف أردت البحث في تاريخ المنطقة التي أنحدر منها كنوع من عرفان الجميل لكل ما قدمته لي.

المنهج المتبع:

المنهج الذي اتبعناه في دراستنا هو المنهج التاريخي بأسلوب وصفي ذلك أن مجال الدراسة هو التاريخ وعليه فإنه يميل إلى الأسلوب الوصفي يتخلله السرد بطابع روائي أحيانا.إضافة إلى أنه بسبب تقيدنا بموضوع الدراسة وهو كتابات الأجانب التي تكون أغلب الدراسات التي يقومون بها والبحوث التي ينجزونها والمقالات التي يكتبونها متميزة بأسلوبها الوصفي ذلك أن هؤلاء الأجانب رحالة كانوا أم علماء أم عسكريين أو غير ذلك من المناصب والوظائف التي يشغلونها وعندما يدخلون منطقة أو بلدا ما فإنهم يصفون ما وجدوا وما رأوا وما سمعوا بأسلوب روائي وهو ما جمعنا بينه في غالب فصول هذه المذكرة .

الدراسات السابقة:

إن الموضوع الذي اخترته في دراستي وباعتباره موضوعا أوليا يهتم بدراسة تاريخ منطقة محلية فإن الدراسات التي تدور حوله ليست متنوعة وقليلة غالبا لذا فإنها ستكون شحيحة نوعا ما فأنا لم أعثر على

دراسة سابقة تهتم بكتابات الأجانب في منطقة وادي ميزاب بالتحديد . من الدراسات التي تناولت تقريبا موضوع منطقة وادي ميزاب وذلك لإثراء عنصر الدراسات السابقة في مفاصل المقدمة نذكر:

- **الدراسة الأولى**: دراسة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي تحت عنوان نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعية والثقافية بوادي ميزاب للباحث **صالح اسماوي بن عمر**، التي تناولت الجوانب الاجتماعية بوادي ميزاب والتي يعد صاحبها مصدرا مهما بحكم أنه من أعضاء العزابة التي لا يخرج المجتمع الميزابي عن إطارها.

فمن خلال هذه المذكرة قام الباحث بدراسة الوضع العام في المغرب الإسلامي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، معنى العزابة أسباب ظهورها،تاريخ تطور حلقة العزابة ومؤسسها والتركيب الهيكلي لهيئة العزابة وشروط العضوية في حلقة العزابة؛ ذكر أيضا الهيئات المرتبطة بنظام العزابة في وادي ميزاب كنظام التعليم وهيئة الغسّالين والغسالات، والمهام التي ينجزونها كتطوع لخدمة المجتمع. تطرق الكاتب في مذكرته أيضا إلى دور العزابة في الحياة الاجتماعية كالنهي عن المنكر والبراءة وإشرافها على الأعراس والسوق، وفي الأخير ختم دراسته بالجانب الثقافي ودور العزابة في الحياة الثقافية واهتمام الأئمة بنشر العلم والتحفيز على تحصيله.

- **الدراسة الثانية**: هي مذكرة لأستاذي المشرف على مذكرتي هذه، الأستاذ **الدكتور ناصر** بلحاج عنوانها النظم والقوانين العرفية بوادي ميزاب في الفترة الحديثة (بين القرنين التاسع والثالث عشر هجريين الموافقين للقرنين الخامس عشر والتاسع عشر ميلادي) إذ تمثل مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة قسنطينة للسنة الجامعية 2013 / 2014 تحت إشراف الدكتورة **فاطمة الزهراء قشي**.

تناول الأستاذ في أطروحته الفترة انطلاقا من القرن الخامس عشر ميلادي الذي أصبح فيه ميزاب أكثر ارتباطا بالشمال خاصة بعد استقرار العثمانيين، وصولا إلى بداية القرن التاسع عشر والتي مثلت بداية عهد الاحتلال الفرنسي. ما يميز هذه الدراسة هو تطرقها إلى الجانب الاجتماعي من ناحية الأسرة في القرن 13هـ/19م ومعالجة فترة القرن 19 م وهي بداية ظهور المنطقة كقطب تجاري مهم.

- **الدراسة الثالثة:** وهي مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر تاريخ المغرب الحديث والمعاصر للطالب **منير الشيخ يحمد** تحت عنوان جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة وادي ميزاب خلال القرن 13 هجري/19 ميلادي من جامعة أحمد دراية أدرار تحت إشراف الأستاذ **مبارك جعفري** للسنة الجامعية 2018\2019.

تناولت الدراسة وركزت على الحياة الاجتماعية بشكل كبير، خاصة الحياة الأسرية والمرأة الميزابية والعادات والتقاليد وما إلى ذلك، ثم تطرق إلى الحياة الاقتصادية بالمنطقة وعرض مختلف النشاطات الاقتصادية منها الفلاحة والري وتقسيم المياه والصناعة والتجارة، وما يميز هذه الدراسة هو تركيزها على الحياة الاجتماعية بشكل معمّق ما يجعلنا نتعرف على نمط حياة المجتمع الميزابي عن قرب من نواحي عدة منها الاجتماعية واقتصادية ما يؤثر على المنطقة بحد ذاتها في النواحي سالفة الذكر.

الصعوبات والعوائق:

بالحديث عن الصعوبات والعوائق التي واجهناها في البحث ودراسة هذا الموضوع، فإن أكبرها يتمثل في قلة المعلومات وشح المصادر وندرتها ثم إنه وفي حال توفرها فهي غالبا باللغة الأجنبية الفرنسية دون ترجمة رسمية وهنا يعترضنا عائق اللغة، فنحن للأسف لسنا متمكنين من اللغات الأجنبية جيدا فنذكر مثلا أن هناك كتاب وحيد يتناول الحياة النسوية في ميزاب ل " إميلي ماري غواشون "[1] سنة 1927 م مترجم من طرف سامية نور الدين شلاط من مدينة بريان وهو غير متوفر على الانترنت ويباع ورقيا الذي يعد مترجما ترجمة رسمية وخرج إلى النور أما باقي مصادر البحث فكلها بقيت بلغتها الأصلية وهذا ما أكده لي أيضا المهتم بالتاريخ الأستاذ " خبزي الحاج موسى بن مُحَّد " ومؤلف كتاب القرارة في أربيعنيات القرن الماضي عندما تكلمنا عن مصادر هذا البحث .

[1] – هي مستشرقة فرنسية تخصصت في الفلسفة الإسلامية والعالم ابن سينا ولدت في فرنسا سنة 1894 م وقدمت عدة أعمال من بينها " الحياة النسوية في ميزاب " سنة 1927 م , عبد الرحمان بدوي , موسوعة المستشرقين , الطبعة الثالثة , دار العلم للملايين , بيروت لبنان ,1993 , ص 191 .

ثم إن ظروف الوباء التي تسببت في الابتعاد عن مقر الجامعة وقلة الدروس الحضورية يجعلنا مضطرين للبحث خارج مكتبة الجامعة. وإضافة إلى كل ما سبق فإن ندرة كتب التاريخ المحلي وجودتها الرديئة في حال ما توفرت عبر الإنترنت و إمكانية تحميلها.

هذا ونضيف إلى هذا ندرة المادة الأرشيفية التي تمثل في موضوعنا مصدرا مهما للمعلومات إذ إن أغلب المصادر التاريخية متوفرة على شكل أرشيف الحصول عليه صعب ويستغرق وقتا إلى جانب ضرورة التمكن من تحليلها كونها مخطوطات مكتوبة يدويا أو باللغة الأجنبية مما يصعب مهمة فهمها. إلى جانب هذا ومما يرتبط بالمادة الأرشيفية، كما نعلم أن أغلب الوثائق المتعلقة بالتاريخ الجزائري ومنطقة وادي ميزاب موجودة في أرشيف ما وراء البحار في فرنسا وهو الأمر شديد التعقيد وصعب التحقيق ومن العسير الوصول إليه من ناحية الإذن من جهة ومن ناحية المسافة من والتكاليف من جهة أخرى وفي الحديث في هذه النقطة فقد عثرنا على أن " إميل ماسكوراي وسنأتي لتعريفه لاحقا في متن المذكرة في مهمته في منطقة وادي ميزاب سنة 1878 م جمع حصادا معتبرا من المخطوطات ومن المعلومات حول المنطقة , وأوجزها في رسالة مؤرخة يوم 28 جوان 1878 , بعثها من الجزائر إلى " هنري دوفيري " أمين جمعية الجغرافيا[1] قائلا أتيت , في صندوق محكم الإغلاق , بالوثائق والكتب التالية : سير أبي زكرياء يحي الورجلاني النسخة الأقدم والأكمل , سير أبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي , كتاب الوضع لأبي زكريا يحي بن الخير الجناوي , النيل للشيخ عبد العزيز الثميني , مخطوط مختصر للشيخ اطفيش في نشأة الاباضية , عمل مشابه من إمام غرداية (قد يكون الشيخ صالح بن كاسي) , نشأة حلقة العزابة في القرن الحادي عشر ميلادي , محاضر جلسات الطلبة والعوام في مليكة خلال القرنين الأخيرين , محاضر العديد من جلسات الطلبة والعوام في القرارة منذ القرن السابع عشر ميلادي , محاضر جلسات بريان , قوانين العطف وبعض محاضر الجلسات , تحليل حوالي اثني عشر شجرة نسب مكتوبة على الجلد , تحليل لعدد من الأنساب , سجل ملاحظات جمعها من بني ميزاب حول التقاليد وغيرها , سبعون رسما وقد وظف " ماسكوراي " في الجزائر ثمانية أشخاص للعمل 12 ساعة في اليوم : 3 نساخ للنيل (600) صفحة , ناسخين لسير أبي العباس الشماخي 500 صفحة , ناسخا لكتاب الوضع 400

[1] – مستكشف فرنسي للصحراء الكبرى (1840 ـ 1892)كلف بمهمة جس نبض السكان الجزائررين إثر إحتكاكهم بالفرنسيين إرتحل عبر عدة مناطق في الصحراء من بينها منطقة وادي ميزاب له عدة مؤلفات حول الصحراء الجزائرية , عبد الرحمان بدوي , مرجع سابق , ص 264 .

صفحة , مالكيا لترجمة سير أبي زكريا 200 صفحة , وسير أبي العباس وكتيب شيخ غرداية 100 صفحة , إباضيا للقيام بالشروح , وقد وعد ماسكوراي بإهداء هذه الأعمال إلى المكتبة الوطنية الفرنسية .[1] ولنا أن نتصور أهمية هذه الوثائق وضخامة عددها ففي غالب الظن أنها موجودة إلى حد الساعة في الأرشيف الفرنسي .

وبما أن مصادر بحثنا تعتمد بشكل أساسي على مصادر أجنبية فإنه غالبا ما يكون أسلوب الكتّاب فيها عنصريا بعض الشيء ويدرج في الوصف أحيانا ما نتحفظ على ترجمته وذكره لعدة إعتبارات والإكتفاء بما يحتاجه البحث فقط لأننا لانعلم الخلفيات التي يكتب على أساسها هؤلاء الأجانب لاسيما التاريخية منها .

ثم إن فترة الانقطاع عن الدراسة والتي وصلت إلى شهر في بعض الأحيان تولّد في النفس ذلك الشعور بالكسل والتسويف للأسف الشديد، وأخيرا فإن عدم الإلمام الكامل بالمعلومات بالنسبة للمقاييس بسبب محدودية عدد الحصص الحضورية كلها أسباب تمثل عوائق للبحث المعمق والمفصل وتقف عقبة في سبيل الإلمام الشامل بالموضوع والإحاطة المستفيضة به.

أهم المصادر والمراجع:

في بحثي لإنجاز موضوع المذكرة، استعنت بكل ما توفر بين يدي من مصادر مادية ككتب ووثائق وصور وغيرها، ومعنوية كروايات من لهم زاد علمي مهم ومن سبقوني في الدراسات وإلكترونية من مواقع ومنتديات وغيرها، إضافة إلى كل ما أتيح لي استخدامه للتعمق في الدراسة من أساتذة وزملاء.

من أهم المصادر التي وجدتها في خصوص هذا الموضوع عثرت على كتاب **أضواء ميزاب** للكاتب الفرنسي **كلود بافارد** بلغته الأصلية الفرنسية ومترجما للعربية إذ قدّم من خلاله نظرة دقيقة عن منطقة وادي ميزاب أثناء زيارته لها. والكتاب يعد مصدرا نادرا جدا ومهما للغاية في دراسة منطقة وادي ميزاب.

[1] – الحياة دورية فكرية محكمة يصدرها معهد الحياة وجمعية التراث القرارة، العدد 22، سبتمبر 2017، المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد، غرداية، الجزائر، ص 158-159.

كذلك كتاب **تاريخ أبو زكريا – تحقيق إيميل ماسكوراي** والذي هو عبارة عن مخطوط لتاريخ الإباضية كتبه الشيخ أبو زكريا وقام وتحقيقه السيد إيميل ماسكوراي. الكتاب يتناول تاريخ ظهور الإباضية والمذهب الإباضي وتاريخ أهله منذ ظهوره أول مرة خلال عهد الخلفاء وحتى وصولهم إلى شمال إفريقيا. الكتاب بلغة توفر لدينا باللغة الفرنسية وهذه الأخيرة ذاتُ أسلوب روائي معقد قليلا ذلك أن الأسلوب يعتمد على السرد وهذا الأخير غالبا ما تكون اللغة الموظفة فيه على قدر من التعقيد والصعوبة التي تجعل من مهمة غير المتمكن منها عسيرة فيما يتعلق بقراءته وفهمه فضلا عن ترجمته وتلخيصه.

إضافة إلى ذلك،فقد استعنت أيضا بكتاب تاريخ **الصّحراء الجزائرية** لصاحبه **جوزيف دوماس** والذي أفاد كثيرا في إثراء تاريخ المنطقة وتشكلها ومدى عراقتها عبر التاريخ. يتميز الكتاب على عكسه سالفه بلغة بسيطة نوعا ما ذات مفردات سهلة وأسلوب وصفي يسير يدل على حنكة في الوصف وخبرة في السرد، فضلا عن مضمونه المفيد إذ اختصر منطقة ميزاب بجميع قصورها واصفا إياهم مركزا على المعلومات العلمية المهمة والتي تعطي فكرة واضحة ونظرة دقيقة عن المنطقة.

وتوفرت لدينا مجموعة كتب أخرى (إفريقيا الغربية لكاتبه بول سولاييه، التشريعات الميزابية للسيّد زيس، تشكيل المدن لدى السكان المستقرين في الجزائر (قبائل جرجرة، شاوية الأوراس، بني ميزاب لإيميل ماسكوراي والقرارة منذ نشأتها لموتيلانسكي) ومجموعة مقالات (من الجزائر العاصمة إلى ميزاب للسيّد زيس، ظروف الحياة العامة في ميزاب، الطب والممارسات الطبية للسكان الأصليين ومقال بلد ميزاب للسيد جوزيف هيغوت) إذ كلها تشترك في أن لغتها السردية يسيرة الفهم وبسيطة المصطلحات التي تمنح القارئ لها متعة القراءة وفائدة الفهم إلى جانب مضمونها الذي يتماثل غالبا لكن لكل منهم طريقته الفريدة في الوصف

إلى جانب جميع هذا، صادفنا أثناء البحث مواضيع تاريخية ووثائق قيمة من بينها الوثائق التي تخص تاريخ المنطقة لدى الأرشيف والتي تكتسي أهمية كبيرة وبالغة في هذا البحث أفادتنا في توسيع مداركنا حول الموضوع وإثراء فهمنا له.هذا دون أن أنسى أن أذكر فضل جمعية التراث بالقرارة والتي مقرها في حي طالبي أحمد القرارة وجمعية أبي إسحاق أطفيش (القطب) ومؤسسة عمي السعيد لخدمة التراث بغرداية وأشكر أعضائها على المساعدة التي قدموها لي والتوجيهات في هذا الموضوع سواء معلومات أم إرشادات.

في محاولتي لإنجاز هذا العمل المتواضع، حاولت قدر الإمكان مراعاة التسلسل التاريخي للأحداث والإلمام الجيد للموضوع حتى أصل إلى نتيجة حقيقية وممحّصة لاسيما وأنها أول تجربة لي في معالجة هذا النوع من المواضيع وفي الأخير وضعت خاتمة تبلوَرَ من خلالها ما توصلت إليه عبر البحث والاستقصاء، عبر الشرح والتحليل ومن خلال الاستنتاجات التي وصلت إليها كنتاج لهذا العمل.

الفصل الأول: نظرة عامة عن وادي ميزاب

المبحث الأول: جغرافية منطقة وادي ميزاب.

المبحث الثاني: تسمية وأصل سكان منطقة وادي ميزاب.

المبحث الثالث: تأسيس قرى ومدن واد ميزاب.

الفصل الأول: نظرة عامة عن منطقة وادي ميزاب:

في هذا الفصل الذي يمثل الدراسة الجغرافية الخاصة بالمنطقة، نستهلّ دراستنا من خلال دراسة علمية جغرافية عن منطقة وادي ميزاب، إذ أنه للخوض في دراسة موضوع ما وجب علينا الإحاطة به ومعرفته أولا حتى يتسنى لنا دراسته بطريقة صحيحة وهذا ما سنقوم به في فصلنا هذا والمكون من ثلاث مباحث كالتالي:

المبحث الأول: جغرافية منطقة وادي ميزاب.

المبحث الثاني: تسمية وأصل سكان منطقة وادي ميزاب.

المبحث الثالث: تأسيس قرى ومدن واد ميزاب.

وعن طريق هذه الأخيرة سيتاح لنا في نهاية المطاف دراسة منطقة وادي ميزاب دراسة ملمة ووافية.

المبحث الأول: جغرافية منطقة وادي ميزاب:

في هذا المبحث، نهتم بدراسة كل من جغرافيا المنطقة وخصائصها الطبيعية وفهم بنيتها الطبيعية.

الموقع الجغرافي والفلكي:

1- جغرافية ميزاب في كتابات ليون الإفريقي ومارمول كاربخال:

يقول ليون الإفريقي[1]: "هي ميزاب، منطقة غير مهجورة، مأهولة في صحراء نوميديا[2]وتبعد بحوالي 300 ميل شرق تيكورارين[3] وعلى مسافة واحدة بينها وبين البحر الأبيض المتوسط؛ تحتوي على ستة قصور وعدة قرى. يملك سكانها المال فهم أغنياء بطبيعة الحال؛ تعتبر محطة تجارية هامة يلتقي فيها تجار الجزائر وبجاية بالتجار القادمين من السودان"[4].

وقد سار مارمول كاربخال[5] على خطى ليون الإفريقي في الكتابة عن ميزاب فقال "إن أهل ميزاب حباهم الله في ذكاء في التجارة ونظارة في المعاملات خاصة مع أهل السودان، ولعبوا دور الوساطة بين تجار مملكة بجاية من جهة والجزائر من جهة، وتجار السودان من جهة أخرى. ميزاب لها مكانة بالغة الأهمية حيث أن موقعها جعل منها ممرا للقوافل التجارية على اتجاهين اثنين، فيتوقف أصحاب البضائع

[1] – ليون الإفريقي: الحسن بن مُحَّد الوزان الزياتي ولد في غرناطة 1485 يعتبر مؤرخا ورحالة له عدة مؤلفات من معاجم وتراجم ومراجع جغرافية منها وصف افريقيا، أنظر مُحَّد فارس، موسوعة علماء العرب والمسلمين، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1993، ص 188.

[2] – نوميديا: يرجح نشأتها في القرن 3 قبل الميلاد وهي مملكة قديمة تحتل رقعة واسعة من بلاد المغرب من وادي ملوية غرب بالجزائر إلى ليبيا شرقا وجنوبا جتوليا (يرجح أنها منطقة الصحراء الكبرى الآن)، أنظر مُحَّد الهادي حارش، مملكة نوميديا، دراسة حضارية من أوائل القرن التاسع إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، ب ط، دار هومة للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2013، ص 6.

[3] – تيكورارين: لفظة بربرية تعني الثكنات العسكرية وتسمى الآن كورارة (قورارة) شمال توات (أدرار) حاليا، انظر مرمول كربخال: إفريقيا ج3، ص 163.

[4] – الحسن بن مُحَّد الوزاني الفاسي، وصف افريقيا، ج2، ترجمة مُحَّد حجي وآخرون، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1983، ص 134.

[5] – مرمول كربخال: سائح ومؤرخ إسباني ولد بغرناطة أواخر القرن السادس عشر ، كان ضابطا في جيش الإمبراطور شارل الخامس، بعد مغادرة الحملة سنة 1535 التي شنت على تونس، بقي يجوب شمال إفريقيا له عدة مؤلفات، مرمول كربخال، إفريقيا ج1، ترجمة مُحَّد حجي وآخرون، ط1 ، الجمعية المغربية للنشر والتوزيع، المغرب، 1984، ص 4-5-6.

ويؤدون المكوس أو الضرائب الجمركية عن ما تحمله جمالهم وقوافلهم وتضاف إلى مكاسب أهالي ميزاب المادية وتزيد في غناهم وثراهم"[1].

تعتبر تسمية "بلاد الشبكة" تسمية جغرافية أما الاسم الأشهر فهو "بلاد وادي ميزاب" أو "ميزاب" وهو اسم مجموعة من الواحات حيث تنتشر قرى مندثرة لم يبقى إلا آثارها فقط[2].

يطلق مسمى " بلاد الشبكة" على هضبة صخرية قاسية من الكلس موقعها شمال صحراء الجزائر، فهي قاسية الطبيعة وتمتاز بذلك عن باقي المناطق، مفهوم قساوة طبيعتها لأنها "صحراء ضمن صحراء"، وجاءت تسمية بلاد الشبكة لأنها تدخلها أودية كثيرة، لا يتجاوز عمقها 100متر وتتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وتصل إلى بحيرة الرمال إلى نقوسة بورجلان[3]

بلاد الشبكة مركزها مدينة غرداية الآن تبعد عن الجزائر العاصمة 600كلم و490 كيلو متر بخط مستقيم، نجدها في خط العرض الشمالي 32°30 وخط الطول الشرقي 3°45 بالتقاطع، ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر 530 مترا[4].

تبلغ مساحة بلاد الشبكة أو " ميزاب"3800000 هكتار[5]، ما يقابلها ثمانية وثلاثين ألف كيلو متر مربع.

2- جيولوجيا بلاد الشبكة:

تتكون الهضبة الصخرية من مجموعة كبرى من الأخاديد (مفردها أخدود) وهي أودية جافة تتقاطع فيما بينها لتكوّن بذلك ما يسمى " الشبكة"، ومن هنا جاء اسم المنطقة "شبكة وادي ميزاب".

[1] – مرمول كربخال: إفريقيا ، ج3، ترجمة محمد حجي وآخرون الجمعية المغربية للتأليف والنشر، الرباط المغرب، 1988، ص 163.

[2] – صالح بن اعمر اسماوي، نظام العزابة ودورها في الحياة الاجتماعية والثقافية في وادي مزاب، رسالة لنيل دبلوما الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي، تحت إشراف د موسى لقبال، معهد التاريخ جامعة الجزائر، 1986- 1987 ، ص 2.

[3] – يوسف بن بكير حاج سعيد، تاريخ بني ميزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، الطبعة 4، المطبعة العربية لخدمة التراث والثقافة، غرداية ج، 2017- 1438، ص 1.

[4] – يوسف بن بكير حاج سعيد، المرجع نفسه، ص1.

[5] – أحمد التوفيق مدني، كتاب الجزائر، بدون طبعة، ب م ن، الجزائر، 1350هـ، ص 226.

تتكون هذه الهضبة من طبقات كلية أفقية رمادية تميل إلى اللون الأسود؛ تميل الطبقة الكلية العلوية منها إلى اللون الأسمر الضارب إلى البني أو اللون الأسمر الذي يذهب إلى الصفرة، وتتداخل هذا الطبقة الكلية مع الأخاديد بالجبس، وهذه الصخور الجبسية تستعمل كمادة في البناء[1].

- **الأودية:** تضم منطقة الشبكة أودية رئيسية هي وادي ميزاب وروافده، وادي بلوح، وادي متليلي، واد النسا، وادي زقرير ولها روافد متعددة. هذه الأودية المذكورة وتجري عندما تصب الأمطار غزيرة على المنطقة وما حولها[2].

يتقاطع وادي ميزاب ويتداخل مع العديد من الأودية المحلية، فيدخل المنطقة من الجهة الشمالية الغربية ويقترن بوادي توزوز وذلك في واحة غرداية، بعدها يواصل الطريق ويلتقي في وادي أنتيسة حيث نجد "واحة بن يزقن"، وبعدها يتقاطع في بونورة مع وادي " أزويل" ويستمر على شكل واد ضيق تم يتسع بعدها عند إلتقائه بواد "نميرات" و "نيمل" ثم يصل في نهاية إلى منطقة زلفانة وينتهي في سبخة على بعد 16 كلم من نقوسة شمال ورقلة[3].

3- الطقس والمناخ في وادي ميزاب:

يميز المنطقة المناخ الصحراوي الجاف طيلة فصول السنة، وبالطبع فهو حار وجاف صيفا وبارد جاف خلال الشتاء أي أنها منطقة قليلة الرطوبة إذ هذه الأخيرة تكون مرتفعة في المناطق كثيرة الأمطار في حين أن بلاد الشبكة تعد منطقة قليلة الأمطار.

[1] – بلحاج بن بانوح معروف، العمارة الدينية الإباضية بمنطقة وادي ميزاب من خلال بعض النماذج، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه دولة في تاريخ العمارة الإسلامية، كلية الآداب و ع إ ج، قسم علم الآثار، جامعة تلمسان، 2002، الجزائر، ص 46.

[2] – بكير بن سعيد اعوشت، مزاب في ظل الحضارة الاسلامية دينيا تاريخيا اجتماعيا، ط1،ب م ن، غرداية الجزائر، 1988، ص 20.

[3] – بلحاج بن بانوح معروف، المرجع نفسه، ص 47.

- **الحرارة:**

درجة الحرارة في بلاد الشبكة تختلف بين فصلي الشتاء والصيف، كما بين الليل والنهار مثلما ذكرنا سابقا؛ففي الشتاء أعلى درجة تكون عند °30، وأدنى درجة تكون عند °1، وأما صيفا فهي مرتفعة جدا تبلغ في بعض الأحيان الخمسين درجة تحت الظل وأدنى درجة عند °20 مئوية.

- **الأمطار:**

معدل هطول الأمطار في منطقة الشبكة يقدر بسبعة وستين مليمترا (67مم) سنويا؛ إذ ألمت بالبلاد سنوات جفاف حاد كاد يهلك فيها الزرع والعبد، وكانت هذه السنين على التوالي 1868- 1920- 1944م ومع ذلك عرفت المنطقة فيضانات كبيرة جدا في الأعوام 1900- 1809- 1960م شهدت خلالها الأرض انتعاشا أنعش المنطقة وأحياها من جديد[1].

- **الرياح:**

جافة جدا قادمة في غالب الأحيان من الجنوب الغربي المجاور للمنطقة، ومن نتائجها قوة إشعاع الضوء في فترة النهار والفرق الكبير في درجات الحرارة بين النهار والليل في اليوم الواحد[2].

4- الزراعة في ميزاب:

يقول أحمد توفيق مدني في موسوعة كتاب الجزائر: "بلاد ميزاب لا يتوفر فيها الماء إلا على عمق الخمسين أو الستين مترا، لقد كانت منطقة جرداء خالية من الحياة فعمّرها سكانها وحولوها إلى واحات وبساتين يتجاوز عدد النخيل المثمرة بها 200 ألف نخلة، وتعدّ بلاد ميزاب من أجمل البلاد وعاصمتها غرداية"[3]

[1] – بكير بن سعيد اعوشت، المرجع السابق، ص 21.

[2] – يوسف بن بكير حاج سعيد، المرجع سابق، ص1.

[3] – بكير بن سعيد اعوشت، المرجع السابق، ص 21.

5- المياه في منطقة ميزاب:

عند استقرار العنصر البشري في ميزاب كان الماء وتوفره تحدّيا يؤرق السّكان إذ كان الحصول عليه بشتى الوسائل الممكنة من أولى الأهداف وأهمها وأكثرها أولوية. لم تكن المياه متوفرة على سطح الأرض وعليه فقد كان من الواجب استجلابها لضمان البقاء على قيد الحياة واستقرارها بسبب طبيعة الأرض الجغرافية ومناخها القاسي وصلابة صخورها التي تزيد من صعوبة الحصول على الماء فضلا عن استغلال الأرض في الزراعة ومختلف المهام[1].

لقد أنشأ السكان نظاما بديعا مكونا من استغلال مياه الطبقة الجوفية من خلال الآبار من جهة، واستغلال مياه السيول الصحراوية بطريقة منظمة وعالية الدقة من جهة أخرى. فقد قال عنها العالم الجغرافي جان بران: "قيمة هذه المنشآت البشرية فليست فقط في الجهود التي بذلت وفي الصدى الذي وصلت إليه من الإنتاج والرفاهية والتي تحققت بالرغم من الظروف الطبيعية، وإنما هي منشآت تكمن قيمتها في كمالها المطلق إذا أنها تمثل أروع ما يمكن تصوره أو تحقيقه في مجال الزراعة في الواحات"[2]

لقد أبدع السكان في ثلاثة أنظمة وطرق مختلفة للاستفادة من المياه بأحسن وجه وهينذكرها كما يلي:

1- يتم وضع شبكة من السواقي والقنوات على المرتفعات الصخرية لتنتهي بخزانات حتى لا تضيع مياه السيول حتّى بالرغم من أن مياه الأمطار التي تحمل السيول غير مضمونة ولا تهطل إلا مرة أو مرتين في السنة.

2- وضع نظام خاص لجمع مياه الوادي التي تتدفق والتي تخضع هي الأخرى للظروف الجوية، التي احتمال سيلانها قليل قد تصل مدته إلى ثلاث سنوات. وهذا النظام يضمن تجميع المياه بواسطة عدة آليات مدروسة وبالغة الدقة.

[1] - Claude PAVARD, Lumières du Mzab, De Lroisse 113, Rue de Paris, 92100, Boulogne- Billancourt, France, 1974.
[2] - Ibid, Op, sp.

3- إنشاء عدد لا بأس من الآبار التي ليست بالعميقة جدا إذ تكون محفورة على عمق ما بين العشرين وستين مترا في أرض الوادي، ويتم تخصيصها للحصول على المياه اليومية من الطبقات الجوفية وذلك لسد الحاجات الأساسية كالشرب والسقي.[1]

[1] - Ibid, Op, sp.

المبحث الثاني:تسمية وأصل سكان منطقة وادي ميزاب:

هذا المبحث عبارة عن دراسة إثنية وحضارية لمنطقة وادي ميزاب سواء تعلّق الأمر بالأرض ذاتها أم بسكانها ونعالج الموضوع كالآتي:

أولا: تسمية المنطقة بوادي ميزاب:

لقد وجدنا عدة فرضيات تشرح الأسباب الكامنة وراء تسمية منطقة وادي ميزاب بهذا المسمى، فالمصادر تقريبا تعطي آراء منطقية وصحيحة لحد كبير على الرغم من اختلافها في وجهات النظر.

يرى العلامة الشيخ مُحَمَّد أطفيش[1] أن تسمية ميزاب تعود للكعبة الشريفة أولا، وقد قدم عدة أوجه هو الآخر للتسمية لكنه فصل فيها في مخطوط الرسالة الشافية في بابه الخامس وقال:

"جرى تسمية أهل هذه القرى الخمس بل السبع ببني مُزاب بضم الميم وتخصيصهم بهذا الاسم ثم ظهر أن ذلك تحريف وأن الصّواب بني مِيزاب بميم مكسورة بعدها ياء مبدلة من واو بمعنى ميزاب أصحاب الميزاب، فهو اسم ينتمي له كل إباضي وهي من أصل الدعوة ولو من عمان، وذلك أنهم كلهم يقفون في الطواف إتجاه ميزاب الكعبة للدعاء ولا يقف في ذلك سواهم من أهل المذهب لأن أبو بلال مرداس ابن حديد دخل الحجر العظيم في ليلة مقمرة صاحية يدعوا أن يظهر الله دينه فقطرت عليه قطرة من الميزاب علامة لإجابة الدعاء بدون سحاب، وذلك انه كان تحت الميزاب يدعو الله راغبا لهفانا جاهرا أن يظهر الله ديانتنا"[2]

[1] – هو مُحَمَّد بن يوسف بن عيسى اطفيش يعد أشهر عالم اباضي بالمغرب الاسلامي في العصور الحديثة، ولد سنة 1821م في عائلة مشهورة بالعلماء من عشيرة آل بامُحَمَّد بن يزقن، له عدة مؤلفات في تفسير القرآن والتجويد والحديث والسيرة وأصول الفقه والتاريخ، توفي في سنة 1914م، معجم أعلام الاباضية من القرن الأول هجري إلى العصر الحاضر، قسم المغرب الاسلامي، ج2، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، 2000م، ص ص399- 405.

[2] – مُحَمَّد بن الحاج يوسف اطفيش، مرجع سابق، ص85.

ويرى العلامة من وجهة نظر أخرى أيضا أن لفظة أو لفظ ميزاب يرجع إلى آلة، ويقصد بها آلة وزوب الماء أي بمعنى انحداره وانصبابه كالميزاب وبمعنى آلة الوزن وأصلها موزاب بكسر الميم وإسكان الواو قلبت ياء لسكونها بعد كسرة وذلك لأنه مأخوذة من وزب الماء يزب كوعد يعد أي سال وانحدر.[1]

في رأي آخر مخالف آخر أن التسمية الأصلية هي بادية "بني مصعب" لأن "بنو مصعب" كانوا يسكنون ويعمّرون المنطقة وينتقلون فيها، وكانت هذه البادية تتخللها ثلاثة وديان طويلة وأما كلمة "ميزاب" فإنها حسب الاعتقاد الشائع اسمٌ لأحد تلك الأودية الثلاثة المذكورة وقد تكون اسما لفرع من فروع قبيلة "نفوسة".[2]

إن البحث الدقيق في أصل التسمية يدخل في تشعّبات كثيرة مختلفة تتطلب الدراسة والتمحيص، فلقد اختلفت مصادر التاريخ والألسنة في نطق كلمة "مِزَابْ" فيقولون: مْزَابْ، مُزَابْ، مصعب، نْزَابْ؛ وهنا نأخذ برأي عبد الرحمن ابن خلدون[3] المؤرخ الشهير(808هـ- 1406م) وقوله أنه قد كان بنو واسين وبني برزال إباضية[4].

إن أصل التسمية مصاب إنتسابا لـ"بني بادين" الذين ينحدر تفرعهم من أولاده الأربعة بنو مصاب بنو عبد الواد، بنو توجين، بنو زردال ومن ثم فإن بني مزاب هم أبناء بادين بن مُحَمَّد بن زرخيك (زهيق) بن واسين بن أدين بن جانا وهذا الأخير هو الجد الأكبر لزناتة القبيلة البربرية[5].

[1] – مُحَمَّد بن الحاج يوسف اطفيش، مرجع نفسه، ص 86.

[2] – يحي معمر، الاباضية في موكب التاريخ، ط3، 2008، ص 301.

[3] – عبد الرحمان ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 7، دار الفكر، 2000، ص 8.

[4] – عبد الرحمان ابن خلدون، مرجع سابق، ص 8.

[5] – معجم مصطلحات الإباضية ، مجموعة من الباحثين،ج 2، ط 2، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، 2012م، ص87.

ثانيا: أصل السكان:

خلال هذا الجزء، سنتحدث عن أصل السكان في منطقة وادي ميزاب وهي كذلك تعتبر من النقاط الشائكة والمتشعبة التي تشكل دراستها والبحث فيها تحديا حقيقيا وينطوي على عدة صعوبات.

يقول العلامة أطفيش: "إن أهل القرى الخمس فقط يسمون بني مصعب لأن بعضهم من ولد مصعب ولعلّه مصعب بن سدمان[1] ويسمّون أهل أغلان كأنَّه من وغلانة، قرية من أعمال تونس ولعل بعضهم جاء منها"[2].

يقول الشيخ مبارك الميلي[3]: "ومن أفخاذ بادين مصاب، بالوطن المعروف بهم، والزاي والصاد متقاربان" وحسب الشيخ أبي إسحاق أطفيش[4] فإن هجرة بني مصعب إلى بلاد الشبكة أو ميزاب كانت في القرن الثاني من الهجرة، مستشهدا برأي ابن خلدون بأنها وقعت لأسباب سياسية محضة.[5]

وقد قال الأستاذ أحمد توفيق المدني[1] "والميزابيون ليسوا كلهم من قبائل نفوسة، بل إن أغلبيتهم فقط فقط من نفوسة، وفيهم الكثير جدا من العرب الأقحاح والقليل من القبائل العربية الأخرى"[2].

---

[1] – هو من علماء تيهرت الرستمية وأعلامها ولا نعلم عنه تفاصيل قبل هذا الترشيح ولا بعده، وإن كان قطب الأئمة الشيخ اطفيش، بني ميزاب هم بني مصعب بن سدمان هذان لذلك ترد عبارة بنو مصعب في المصادر القديمة أكثر من بني ميزاب، عاصر القرن الثاني هجري787م، معجم أعلام الاباضية، ج 2، ط2، ص 421.

[2] – الشيخ مُحَمَّد بن يوسف اطفيش، الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل واد ميزاب، نسخة مخطوطة، ب ط، ب م ن، 1326هـ، ص88.

[3] – هو مبارك بن مُحَمَّد بن رابح بن علي إبراهيم ولد سنة 1898 في الميلية، كنت من رواد الحركة الإصلاحية وعالما مؤرخا، له نشاط صحفي كتب عدة مقالات منها العقل الجزائر في خطر، الشرك ومظاهره وكتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث بجزئيين، توفي 1945م، بلقاسم ميسوم، مبارك الميلي رجل الإصلاح ومؤرخ الجزائر، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 1، جانفي، ديسمبر 2007، جامعة مُحَمَّد خيضر، بسكرة، ص45[1]- 151.

[4] – ولد في 103هـ عالم من بني يزقن بميزاب أخذ العلم عن عمه قطب الأئمة العلامة اطفيش، له عدة منجزات في مجالات عدة في الصحافة والتحقيق وتأليف الكتب والفتاوى وعمله في السياسة والعمل الإسلامي، توفى في 26 ديسمبر 1965م، معجم أعلام الاباضية ، ج2،ط2، ص ص 24- 25.

[5] – يوسف بن بكير الحاج سعيد، مرجع سابق، ص 6.

يقول المؤرخ ابن خلدون: "ومن بني واسين هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل تيطر في القبلة لما دون الرمال، على ثلاث مراحل من قصور بني ريغة في المغرب، وهذا الاسم للذين اختطوها ونزلوها من شعوب بني بادين...، وضعوها في أرض حرة على أحكام وضراب ممتنعة في مسارجها بين الأرض المحجرة المعروفة بالحمادة في سمت العرق، متوسطة فيه قبالة تلك البلاد على فراسخ في ناحية القبلة، وسكانها لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني توجين ومصاب وبني زردال، فيمن أنضاف إليهم من شعوب زناتة، وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب".[3]

ويذهب الأستاذ مُحَمَّد علي الدبوز[4] إلى أنه قد: "كان الميزابيون إلى آخر القرن الثالث الهجري في شمال الجزائر وفي نواح أخرى من المغرب الأدنى والأقصى، فهم الذين أنشئوا في الجزائر أول دولة إسلامية مستقلة" ثم يقول" فيهاجروا بهم إلى ورجلان[5] ثم سدراتة[6] ثم إلى وادي ميزاب".

---

[1]- ولد سنة 1899 في تونس، كان مؤرخا ومناضل سياسي من بين مؤلفاته تقويم المنصور في خمسة أجزاء، كتاب الجزائر، جغرافية القطر الجزائري، توفي 18أكتوبر 1983م، حاج عبد القادر يخلفن المؤرخ أحمد توفيق المدني ومذكراتهن مجلة العصور الجديدة، العدد 3 -4، عدد خاص، 2011، 1433هـ، ص 175- 188.

[2]- بكير بن سعيد أعوشت، مرجع سابق، ص 61.

[3]- علي يحي معمر، الاباضية في موكب التاريخ، مراجعة الحاج سليمان بن الحاج إبراهيم بابزيز، ط3، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 2008م، ص 9.

[4]- هو مُحَمَّد بن علي بن عيسى دبوز من مواليد بلدية بريان ولاية غرداية سنة 1919، كان معلما وأستاذا ابتدع طرقا حديثة في التدريس، وظلا مرجعا يحتذى به، كان له عدة مؤلفات، توفي سنة1981، الزرويل صالح الشيخ المؤرخ مُحَمَّد علي الدبوز، منهج تعليمي جديد في زمن قديم مجلة دراسات وأبحاث، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد14، عدد1، جانفي 2022 السنة 14، جامعة غرداية، مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية، ص ص 838- 848.

[5]- إن المعلومات حول تاريخ نشأتها قليلة، وتقع مدينة ورجلان حاليا جنوب الجزائر وتبعد عن العاصمة الجزائرية بحوالي 820كلمن وكانت ضمن أول دولة قامت بلاد المغرب الأوسط وهي الدولة الرستمية الاباضية سنة 160هـ/ 777م ،وحد من حدودها الجنوبية الصحراوية، دور مدينة ورجلان في تجارة الرقيق في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، مجلد4، العدد1، جانفي 2021، ص 83.

[6] - تقع مدينة سدراتة على بعد 14كلم جنوب مدينة ورقلة حاليا ولم تكشف عن آثارها إلا في نهاية القرن 19م، والمعطيات التاريخية قليلة جدا حول هذه المدينة، يرجح تاريخ تأسيسها على ما بعد سقوط الدولة الرستمية 296هـ/ 909م أغلب الظن، فن الزخرفة المعمارية بمدينة سدراتة الإسلامية، الدكتور مُحَمَّد لخضر عوملي، جامعة قالمة، مجلة المنبر لتراث الأثري، العدد3، 2014، ص ص 309- 310.

وكانت هذه النواحي الميزابية وطنا لقوم من زناتة البربرية، القبيلة المشهورة، استوطنوه منذ زمن بعيد فنُسب إليهم، وكان هؤلاء الزناتيون منبثين في مكان المدن الخمس، قد نصبوا فيه خيامهم وبنوا في نواحيه بعض القرى البسيطة يسكنونها، ومن تلك القرى العطف التي لا تزال فيها آثارهم إلى اليوم وكان هؤلاء الزناتيون على مذهب المعتزلة.

ثم ينقطع ويضيف لاحقا: "فاندمجوا في إخوانهم الميزابيين الذين هاجروا إليهم، وامتزجوا بهم وصاروا شعبا واحدا تربط بينهم الدماء الممتزجة ودين الله القويم".[1]

ويلخص الدكتور بحاز ابراهيم[2] أن أهم ملاحظة يمكن الخروج بها من هذا النص هي أن زناتة، ومصاب خاصة هم الوحيدون الذين كانوا يسكنون هذه المنطقة التي حددها ابن خلدون بنوع من الدقة، وهذا إلى عهده، وهو المتوفى عام 808هـ 1406م فالمنطقة للزناتيين عموما، ونسبت للميزابيين خصوصا، وهي إلى القرن الثامن هجري الرابع عشر ميلادي، ولا يسكنها إلا هؤلاء الزناتيون، الذين غلبت عليهم تسمية بني مصاب"[3].

[1]- علي يحي معمر، مرجع سابق، ص 310.

[2] - من مواليد 14 أوت 1956م الموافق ل03 محرم 1376هـ، باحث من الجيل الثاني في مجال البحث في التاريخ الوسيط، تحصل على شهادة الباكالوريا سنة 1977 ثم على شهادة ليسانس تخصص تاريخ سنة 1980من جامعة منتوري بقسنطينة وثم شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط من جامعة قسنطينة سنة 1997؛ أستاذ التعليم العالي بجامعة غرداية تخصص تاريخ إسلامي وسيط. له عدة مؤلفات من بينها: الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الإقتصادية والحياة الفكرية 160-296هـ/777-909م، عبد الرحمن بن رستم مؤسس أول دولة إسلامية مستقلة بالجزائر، معجم أعلام الإباضية...إلخ. وكذلك له عدة محاضرات ومقالات منها: ثورات الخوارج في المغرب الإسلامي دراسة نقدية في المصادر العربية قديما والمدرسة الغربية حديثا، دراسة نقدية لبعض المصادر في تاريخ القضاء بالمغرب الإسلامي خلال القرون الثلاث الهجرية الأولى، الطبيعة العامة للحكم عند الرستميين...إلخ. كما علق وراجع عديد الكتب والمؤلفات نذكر منها: كتاب الأحكام مذيلا بحاشية تأليف أبي زكريا يحي بن الخير الجناوني، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية للشيخ سليمان باشا الباروني...إلخ. وله أيضا تحقيقات لكتب عدة منها: كتاب غصن البان في تاريخ وارجلان لإبراهيم بابا حمو أعزام، كتاب أضواء على وادي ميزاب ماضيه وحاضره لمفدي زكريا.

[3]- إبراهيم بحاز: الميزابيون المعتزلة قراءة جديدة لنصوص قديمة، مجلة حياة) دورية فكرية محكمة يصدرها معهد الحياة وجمعية الثرات، القرارة غرداية المطبعة العربية، نهج الطالبي أحمد غرداية الجزائر، العدد1، 1998، ص 126.

المبحث الثالث: تأسيس قرى ومدن واد ميزاب:

بالحديث عن تأسيس القرى والمدن في ميزاب، فقد تم الأمر على مراحل عديدة وكان خلال أزمنة متباعدة فلم تُؤَسس كلها في وقت متقارب ويرجع ذلك إلى عدة أسباب وعوامل منها عدم الاستقرار والحروب والجفاف كما في قول الشيخ العلامة أطفيش في رسالته الشافية: "في أجداد بني ميزاب في هؤلاء القرى الخمس، أعلم أن أهلها كانوا في مواضع قريبة من حيث هي الآن وكان أهل كل قرية مضطربين ن قليلا غير مطمئنين للجدب وقلة الماء وبعض الحروب وأكثرهم انتقالا من موضع إلى موضع"[1]

ومن خلال حديث الشيخ أطفيش نستطيع استنتاج أن هذا دليل على أنه كانت هنالك قرى موجودة قبل المدن الحالية الموجودة الآن، نذكر منها أهمها وهي: (أنظر الملحق 01):

- **العطف:** وهي أقدم من حيث التأسيس، تم تأسيسها سنة 402هـ 1012م على يد خليفة بن أبغور[2]، أما كلمة (تاجنينت) فتدل على المكان المنخفض.[3]

وسكان مدينة العطف كانوا قبائل بربرية زناتية معتزلة أي على مذهب المعتزلة تسكن المنطقة، و أُنشأت هناك ثلاث قرى أخرى أيضا وهي: أوخيرة، أغرم نتلزضيت، أغرام نولاوال؛ غير أن هذه القرى اندثرت وفنيت وسقط ذكرها. (توجد فقط مقبرة المعتزلة في العطف وهي محصنة).

وتتواجد عدة آراء حول أصول تسميتها، فهنالك من يقول العطف نسبة إلى عائلات بربرية زناتية سكنت المدينة، وهنالك الاسم العائلي "عطفاوي" الذي لا يزال موجودا لحد الآن ومنه نسبت إليه العطف؛ وهناك قول ثالث على قدر من الصحة وهو أن " تقنينيت" وهي كلمة أصلها بربري يُقصد بها وتدل على الإناء الذي يصنع بسعف النخيل على شكل دائري،ولأن المدينة منشأة على شكل دائري

[1] – الشيخ اطفيش، مرجع سابق، ص 31

[2] – عاصر القرن 5هـ، 1012من أسس مدينة تاجنينت العطف في مزاب، وهي أقدم مدن ميزاب حالية النشأة، ولا نعرف تفاصيل كثيرة عن شخصه، معجم أعلام الاباضية، ج2،ط2، ص 135.

[3] – يوسف بن بكير حاج سعيد، مرجع سابق، ص 16.

هي الأخرى[1] فقد سميت باسمها، وهناك من ينسب اسمها إلى موقع تواجدها الواقع محاذاة موضع انعطاف الوادي فسميت بالعطف لأنها في المنعطف، وقد قال الشيخ أطفيش: "قرية تمت تسميتها بذلك لانعطافها جانب الواد لا يراها من يسير في الواد"[2].

- **بونورة:** أنشأت مدينة بنورة سنة 437هـ/1065م، وأول من أقام بها كان أبي إسماعيل وقيل إن بني مظهر التي جاءت من سدراتة هي التي قامت بتأسيسها.

وهناك رأي آخر حول ذلك والذي به جانب قوي من الصحة، إذ يقول بأن أصل المسمى آتِمن بُنور وهي قبيلة زناتية موجودة إلى اليوم في ميزاب و الأوراس[3]؛ ويقال أبضا أن بونورة سميت ربما على إمرأة تبيع النورة أو المغرة وهو ما يعرف بالجير[4].

- **غرداية:** أسست مدينة غرداية سنة 477هـ/1085م ومعنى اسمها يدل على الأرض المستصلحة الواقعة على طرف ضفة مجرى الوادي.

يقال أيضا أن اسم تغردايتما هو إلّا تصغير لكلمة أَغَرْدَايْ التي تعني في مفهومها الجبل[5] ذلك أنها مبنية فوق جبل فاستمدت من ذلك اسمها.

- **بني يزقن أو آيت يزجن:** تم تأسيس المدينة عام 720هـ/1321م وتم إيواء سكان القرى المجاورة المهجورة بالمدينة تِرِشِينْ، ثلات موسى، أَقْنُوُنَّايْ، بُوكْيَاوُ.

سكان موركي الذين سكنوا بونورة فقد تفرقوا بين بونورة وبني يزقن وسكان تَمْزَارْتْ ذهب البعض منهم إلى بني يزقن والبعض بونورة والباقي غرداية[6].

[1]- سعيد بن بكير أعوشت، مرجع سابق، ص 67.
[2]- الشيخ أطفيش، مرجع سابق، ص 37.
[3]- سعيد بن بكير اعوشت، مرجع سابق، ص 67.
[4]- الشيخ اطفيش، مرجع سابق، ص 35.
[5]- يوسف بن بكير حاج سعيد، مرجع سابق، ص 18.
[6]- يوسف بن بكير حاج سعيد، مرجع نفسه، ص ص 18-19.

يقول الشيخ اطفيش:" ففي أعمال قسنطينة، قوم يسمون أولاد يسقن جاءت طائفة منهم إلى هذه القرية فنسبت إليهم"[1].

- **مليكة:** تم التأسيس الأول في مكان يسمى" آغرم أوداي" وذلك في سنة 408هـ/1015م، إلا أن هذه المدينة انتهت وانقرضت سنة 1123م ثم بعد ذلك تم تأسيس مليكة الحالية على يد جماعة من نفوسة قبيل سنة 750هـ.

أما في أصل تسميتها فلدينا من يقول أنه يعود اسم مليكة الأصلي إلى " أتمليشت" ونسبة إلى "مليكش" أحد زعماء ووجهاء بني زناتة[2].

- **القرارة:** تقول الروايات المتداولة بأنتأسيس القرارة جاء بعد فتنة عظيمة في غرداية أدّت إلى مغادرة فرقة من بني ميزاب وهم آل باخة والعفافرة وأولاد نوح إلى منطقة الأغواط بسبب مقتل أحد أبنائهم، وقد اشتغلوا في التجارة مدة من الزمن وأرادوا تأسيس مسجد لهم في الأغواط، لكن أصحاب البلد منعوهم وقاموا بإخراجهم[3].

ونتيجة لذلك ارتحلوا إلى واد زقرير القريب من موقع القرارة الحالي أين تم تأسيس قصر"المبرتَخ" وقد كان هذا المجتمع مزيجا من مجموعة عشائر أمثال أولاد نوح وأولاد باخة والعفافرة وبعض المنفيين من بني يزقن وحدثت بعد ذلك اضطرابات عديدة على إثرها قام " أولاد باخة" أو "باخت" بتأسيس قرية لهم على مكان يسمى "كدية العقارب" سمّوها القرارة سنة 1631م وتستعمل تسمية القرارة للدلالة على الهضبة المرتفعة حولها أرض منخفضة.

- **بريان:** بعد أن حل الخراب بقصر المبرتخ وانتقل أولاد نوح والعفافرة إلى الموقع الحالي لبريان، والذي يقع في مكان يلتقي فيه واد السودان وواد بالوح وهنالك شيّدوا قصرهم سنة 1101هـ 1690م.

[1]- الشيخ اطفيش، مرجع سابق، ص 33.

[2]- سعيد بن بكير اعوشت، مرجع سابق، ص 68.

[3]- طاعة مصطفى، سعيود ابراهيم، حواضر وادي مزاب عبر التاريخ، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ جامعة معسكر الجزائر 2007، العدد الأول، مجلد 17، عدد خاص، ص 820- 821.

ويرى الباحث موتيلانسكي أن تاريخ التأسيس هو 1105هـ/1696م ويبدوا أن التاريخين متقاربين. وبسبب قلّة الماء انضم كل من أولاد يحي وآل دبادبة وقبائل أخرى من العرب وهم على المذهب المالكي إليهم. امتازت مدينة بريان بخصوبة الأرض والموقع الإستراتيجي الهام مما جعلها مدينة زراعية بدرجة أولى[1].

في نهاية هذا الفصل الحالي، والذي يعد فصلا تمهيديا بالأساس و بمثابة مدخل إلى المذكرة، تطرّقنا فيه إلى جوانب عديدة حول منطقة وادي ميزاب؛ فقد قدمنا فيه دراسة جغرافية، إثنية حضارية لمنطقة الشّبكة أو وادي ميزاب أو حتى بادية بني مصعب كما يرى كل شخص أو باحث أو مؤرخ أن يسميها، وكلّ تلك المسميات صحيحة في الحقيقة ولها من الأدلة ما يقوّيها ويدعمها ومهما تعدّدت المسميات فالمقصود في نهابة المطاف واحد.

الدراسة الجغرافية المتواجدة في مباحث هذا الفصل الذي أولها قدمنا فيه تقدير أول المؤرخين والرحالة "حسن الوزّان" و "مارمول كربخال" لبلاد ميزاب وجغرافيتها إلى دراسة الموقع الفلكي والجغرافي حسب المصادر الحديثة والجيولوجيا الخاصة بها والطقس والمناخ، الحرارة، الزراعة، الجفاف والمياه.

أما في المبحث الثاني والذي لجأنا فيه إلى الاقتباس، الأمر الذي يتطلبه موضوع الدراسة، حتى نتفادى التباس الفهم وتشوه المعنى، وتحدثنا فيه عن تسمية وأصل المنطقة فقد تعددت المسميات بين " وادي ميزاب" " بلاد الشبكة" " بادية بني مصعب" كما أسلفنا الذكر إذ أن كلّ مسمًى يرجع إلى شي معين؛ أما فيما يتعلق بأصول السّكان فيعود أصلهم إلى أصول بربرية حسب ما أكده المؤرخ " ابن خلدون" وهو أصل يتأرجح بين قبيلتي نفوسة وزناتة البربريتين.

ونهاية في المبحث الثالث والأخير، قدّمنا لمحة عن تأسيس قرى ومدن وادي ميزاب إذ أن هنالك قرى من بينها أخرى أسّست في بادئ الأمر لكنها خربت واندثرت مثل أوخيرة، أغرم نولاوال...إلخ، ثم

[1]- طاعة مصطفى، سعيود ابراهيم، مرجع سابق، ص ص 821- 822.

تأسست بعدها أولى المدن انطلاقا من سنة 1012م وهي العطف (تاجنينت) ثم تلتها بعد ذلك مليكة، بونورة، بن يزقن، غرداية، القرارة وبريان كآخر مدينة أنشأت وأحدث قصر أُسِّس.

في الأخير، منطقة وادي ميزاب منطقة مميزة لها تاريخها الخاص ومعالمها المميزة وتركيبتها الفريدة طبيعيا من وجهة نظر الجغرافيا والجيولوجيا والخصائص المناخية ومن وجهة نظر اجتماعية بتنوع سكانها وتفرع أصولهم وتعددها الأمر الذي يجعل من المنطقة إضافة بديعة أخرى إلى أرض هذا الوطن وأهله.

كما استخدمنا في هذا الفصل مصادر بالغة العربية بدرجة الأولى والتي اعتمدت بدورها على مصادر أجنبية كمصدر أساسي ودعامة رئيسية كمادة للبحث. وفي نهاية هذا الملخص، نرجو أن نكون قد قدمنا المعالم الكاملة و الصورة الواضحة لمنطقة وادي ميزاب.

الفصل الثاني:ميزاب من خلال آراء الأجانب

المبحث الأول: كتابات السيد جوزيف دوماس

المبحث الثاني: كتابات السيد بول سولاييه

المبحث الثالث: كتابات السيد زيس

الفصل الثاني: ميزاب من خلال آراء الأجانب:

كما كان حال الحركة الاستكشافية والرحلات الاستطلاعية التي تزامن وقوعها مع انتشار الحركات الاستعمارية التي شهدها العالم أجمع، لم تكن الجزائر بمنأى عن ذلك أيضا، فمثلما لحقها مد الحركة الاستعمارية الفرنسية منذ مطلع القرن التاسع عشر لحقها مد الرحلات والاكتشافات الجغرافية التي قام بها المستشرقون الذين توافدوا إليها ضمن جموع الاستعمار سواء كانوا أعضاءا في جيوشها أو علماء في مدارسها (بمختلف تخصصاتهم) وانتشروا في ربوعها واكتشفوها للعديد من الأهداف على رأسها التعرف عليها جيدا حتى يتسنى بذلك لفرنسا الاستعمارية احتلالها والسيطرة عليها.

وفي من ضمن تلك الرحلات والاستطلاعات، كانت منطقة ميزاب من بين المناطق التي وصل إليها أولئك المستشرقون واكتشفوها وكتبوا عن رحلاتهم إليها وملاحظاتهم عنها وهو ما سنتطرق إليه في فصلنا هذا إذ أننا سنحاول رؤية منطقة ميزاب من منظور كل من المستشرقين جوزيف دوماس، بول سولابيه والسيد زيس عبر بعض كتاباتهم ومقالاتهم التي توصلنا إليها.

المبحث الأول: كتابات السيد جوزيف دوماس:

أولا: التعريف بشخصية جوزيف دوماس:

اسمه الكامل ملشيور جوزيف أوجين دوماس، ولد يوم 14 جويلية 1803 بمدينة ديلموند بسويسرا، انضم لقوات الجيش وهو ابن التاسعة عشر. كانت أولى بعثاته إلى الجزائر سنة 1835 ضمن إرسالية الفرقة الثانية لإفريقيا حيث تعلم أثنائها اللغة العربية وأتقنها بسهولة كبيرة وبراعة مميزة.

بعد التوقيع على معاهدة التافنة[1] فيماي1837 عُين قنصلا لدى الأمير عبد القادر[2] واستقر في منطقة معسكر لمدة سنتين حيث عمّق معارفه حول البنية الاجتماعية للغرب الجزائري ونظام الدولة الجزائريةالذي وضعه الأمير عبد القادر آنذاك؛ استغل جيدا نفوذه مع الأمير لأداء مهمته وواجبه اتجاه وطنه والإدلاء بمعلومات مهمة لفرنسا الاستعمارية، وبعد نفي الأمير عبد القادر أُسندت إليه مهمة مرافقته.

لقد استغل "دوماس" هذه الظروف لتغذية ثقافته أكثر عن الجزائر وخاصة فيما يتعلق بالجهة الغربية والجنوبية الغربية، وفي سنة 1841 عُين مسؤولا عن المكاتب العربية، وفي سنة 1850 عُين على رأس مصلحة الجزائر في وزارة الحربية، ثم في 1852 مديرا للشؤون الجزائرية ومستشارا للدولة الفرنسية ونائبا في مجلس الشيوخ[3].

وخلال ممارسته لمهامه وضع نظاما جماعيا لجمع معلومات دقيقة مفصلة عن الأهالي الجزائريين مما سمح له بتطوير كتاباته التي جاءت بطريقة تحليلية؛ فقد عرف عن قرب المجتمع الجزائري بمختلف فئاته

[1] – هي معاهدة تمت بين الأمير عبد القادر عن الجانب الجزائري والجنرال بيجو عن جانب الفرنسي وقد حمل الطرفان المتصارعان اتجاهين متناقضين، الأول تحرير الجزائر من الاحتلال الفرنسي والثاني احتلالها وتحويلها إلى مستوطنة ضمن الإمبراطورية الفرنسية، مُحَمَّد رزيق: تاريخ الأمير عبد القادر قراءة جديدة في معاهدة التافنة، المجلة الجزائرية للعلوم السياسية والعلاقات الدولية، العدد 3، ديسمبر 2014، ص 141- 165.

[2] – ولد الأمير عبد القادر سنة 1826 في الرابع والعشرين من شهر ماي بمعسكر، كان عالما فقيها ومجاهدا ضد الاحتلال الفرنسي ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة؛ توفي سنة 1883 في منفاه بسوريا. انظر: العربي قلايلية، البعد الإنساني في شخصية الأمير عبد القادر من خلال كتاب الأمير عبد القادر، مجلة المعيار، العدد 2، ديسمبر 2010، ص 164- 182.

[3] – هرباش زاجية، الصحراء الجزائرية في كتابات المستشرقين "دوماس أنموذجا"، مجلة العصور الجديدة، العدد 6 بمناسبة خمسينية الإستقلال، 2012، ص 29 – 30.

وبفضل احتكاكه بهم تعرف على الحياة الاجتماعية والدينية التي وصفها لاحقا في كتاباته المختلفة قبل وفاته سنة 1871. من أهم مؤلفاته: الصحراء الكبرى 1848، العادات والتقاليد الجزائرية 1853، خيول الصحراء 1858، الحياة العربية والمجتمع الإسلامي 1896[1].

كانت انطلاقته الأولى سنة 1843م من مدينة الجزائر إلى ورقلة عبر كل من البليدة، المدية، البرواقية، بوغار ثم سهل تاغية، سيدي بوزيد في الواجهة الشرقية لجبال العمور؛ وعبر هذه الجبال سارت القافلة إلى الأغواط التي وصلتها في اليوم الخامس عشر من انطلاقته. بعد استكشاف منطقة الأغواط توجه " دوماس " إلى غرداية التي وصلها بعد خمسة أيام، وقبل مغادرتها عمل على استكشاف منطقة ميزاب ثم في اليوم الرابع والعشرين وصل إلى ورقلة واستكشف مناطقها[2].

في ثاني رحلة له، كان ل"دوماس" رغبة في بلوغ منطقة تقرتفتوجه من الجزائر إلى سور الغزلان، مسيلة ثم بوسعادة التي وصل إليها في اليوم الثامن من تلك الرحلة؛ وبعد استكشاف منطقة مسيلة وبوسعادة توجه إلى منطقة الزيبان وبسكرة في اليوم الثاني عشر، ثم من بسكرة إلى تقرت.

أما في الرحلة الثالثة له عمل على كشف الطريق بين بسكرة والأغواط عبر سيدي خالد، مسعد، قصر الحيران فالأغواط وتوغل من خلال ذلك في منطقة " أولاد نايل"[3]؛ كما سلك الطريق الرابط بين تقرت وغرداية من الشرق إلى الغرب، ثم تقرت إلى الأغواط، وعبر طريق بسكرة إلى غرداية في مدة قدرها عشرة أيام ثم من تقرت إلى ورقلة ومن تقرت مرة ثانية إلى الأراضي التونسية مرورا بمنطقة وادي سوف، نفطة، توزر لمدة قدرها تسعة أيام حيث تمكن من استكشاف تلك المناطق ووصفها[4]. وبعد أن وصل إلى الجنوب الشرقي وتعرف عليه وجه اهتمامه بمنطقة الجنوب الغربي من جهة أخرى.

قام "دوماس" بأول رحلة من مدينة الجزائر إلى عين صالح واستكشف أثنائها مناطق جبال العمور وجبال القصور التي لم تكن مكتشفة بعد حيث اتجه إلى سيدي بوزيد ومنه نحو الجنوب الغربي حتى دخل منطقة "جبال العمور" التي وصف مدنها وقراها وأوديتها، ثم عبر جبال تسمى كسال وصولا إلى استيتن

[1] - هرباش زاجية، مرجع سابق، ص 30.

[2] -Eugéne Dumas, Le sahara Algérien, Etudes Géographiques, statistiques et historiques sur la région sud des établissements Français, Paris, 1845, page 40.

[3] - Ibid, pp92.

[4] - Ibid,pp85-160.

وبوعلام و الغاسول ومنه إلى بريزينة واصفا تلك المناطق وقبائلها[1]، ثم سلك طريقا نحو فقيق حيث عبر قصور الأطلس الصحراوي وواحاته ومنها اربوات، الشلالة القبلية والظهرانية، عسلة، بوسمغمون، تيارت، العين الصفراء، سفيسيفة، مغرار الفوقاني والتحتاني؛ ومن سفيسيفة ثانية توجه نحو ايش ومنها مباشرة إلى فقيق، وتمكن من وصف تلك القصور والواحات بشكل دقيق ومن خلالها وصف أيضا أولاد سيدي الشيخ والقبائل المتاخمة لها[2].

ومن منطقة فقيق توجه "دوماس" عبر المنيعة إلى أن دخل منطقة "توات" (محارزة، قورارة، أوقيروت، تديكالت) ثم تميمون، وفي اليوم الثامن والأربعين كان في "عين صالح" واصفا المناطق التي قطعها والقبائل التي لقيها[3].

ثم عاود "دوماس" الرحلة من أجل الوصول إلى مناطق أخرى؛ حيث شرع في رحلة من مدينة الجزائر إلى مدينة عين صالح قاطعا المسافة في 22 يوما من المسير انطلاقا من تاقدامت إلى استيتن والغاسول؛ ثم عبر الصحراء وعبر أوديتها منها وادي مية ثم جبل باتن، ومنه إلى عين صالح واستكشف خلالها الطريق الرابط بين البيض وتميمون، وأيضا طريق متليلي إلى تميمون مرورا بمنطقة الشعانبة، ورقلة، متليلي والمنيعة، إضافة إلى طريق تميمون–عين صالح وكذلك أيضا طريق متليلي–عين صالح[4].

إن المتتبع لهذه الرحلة الشاقة في ظل غياب الإمكانيات يدل على التصميم الكبير لفرنسا الاستعمارية والرجال الذين حملوا لوائها في استكشاف الصحراء الجزائرية تمهيدا لإخضاعها بشكل كامل واحتلالها مباشرة.

ثانيا: منطقة وادي ميزاب من خلال كتاب دوماس "الصحراء الجزائرية" 1845:

أثناء البحث في هذا الجزء، استوقفتني ثلاثة أوجه للمصدر الواحد فقد عثرت على وثيقة أرشيفية في مركز الآباء البيض أو المركز الثقافي للوثائق الصحراوية مكتوبة بالآلة الراقنة باللغة الفرنسية

[1] -Ibid, pp 211.
[2] - Ibid , pp-248258.
[3] - Ibid ,pp 275 –285.
[4] - Ibid , pp 307– 315.

والتي تعد جزءا من كتاب الصحراء الجزائرية الأصلي لدوماس من الصفحة 59 إلى الصفحة 71 (أنظر: الملحق 03) وعند المطابقة بينهما وترجمة هذه الوثيقة تبين أنها من الكتاب الأم والكتاب بالفرنسية يعد الكتاب الأصلي والكتاب المترجم بالعربية "الصحراء الجزائرية – le Sahara algérien " ترجمة السيدة "فوزية قندوز عباد" ولكن ما يهمنا هو المضمون ويبقى الإشارة إلى هذه المصادر مهما دون شك.

تكلم دوماس عند زيارته إلى منطقة وادي ميزاب عن جوانب عدة شملت تقريبا كل شيء إذ يقول: "كان بني ميزاب وسط سكان الصحراء أمة لوحدهم تختلف بعاداتها المتشددة ولهجتها الخاصة، تحملها الذي يضرب به المثل وبعض الاختلاف في تطبيق العبادات رغم أن دينها هو الإسلام" وهنا يحاول دوماس أن يقول أن المجتمع في وادي ميزاب له خصوصية مميزة تتسم بالمحافظة والاحترام الكبير للعادات والتقاليد[1].

ويذكر أيضا أنه تكلم مع أحد شيوخ اليهود الأذكياء والعارفين بهذا العلم من خلال التجارب التي اكتسبها عبر الأسفار الطويلة ومن خلال العلاقات مع التجار، فعلى حد قوله بأن بني ميزاب من أصول بربرية لأنهم بيض البشرة وذوو عيون زرقاء اللون وشعر أصفر ويتكلمون لهجة أقرب إلى البربرية"[2] ويذكر أن"بني ميزاب يُسَمون هكذا لأن الأرض التي يسكنونها تسمى ميزاب أو ربما أفضل لأن لهم بهذه الأرض وادي يحمل هذا الاسم[3].

ويصف التدين في المنطقة قائلا بأن "بني ميزاب أكثر تدينا من العرب، لهم لباس خاص للصلاة الذي لا يجب تدنيسه أثناء القيام بالأعمال اليومية، إنهم يصومون ويصلون ويتوضؤن كما ينبغي، تشدد آدابهم وصل إلى حد الصرامة؛ هذا صحيح أنهم يستطيعون الزواج بأربع نساء لكن عكس عادات الصحراء"[4] فإنهم يخفون نسائهم عن أعين الغرباء، فالولد لا يستطيع رؤية النساء إلا والدته فقط، والأخ

[1] - Ibid, pp 52.
[2] - Ibid , pp 52-53.
[3] - Ibid , pp 54.
[4] – من الشروط التي يحتويها عقد الزواج وضبطها مجلس وادي ميزاب في المدن السبع أن يتعهد الزوج إلى زوجته بأن لا يسرق ولا يزني، ولا يترك الصلاة وأن لا يتزوج عليها إلا بإذنها وإن تزوج سرا وعلمت بعد ذلك فلها أن تطلب الطلاق وتفعل في نفسها ما تشاء وتعتبر من المجتمعات التي تقيد تعدد الزوجات. ناصر بلحاج، النظم والقوانين والأحكام العرفية بوادي ميزاب في الفترة الحديثة، رسالة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، 2013 /2014، ص135-138 .

لا يستطيع رؤية زوجة أخيه، وعندما يخرجن فإنهن يتسترن جيدا؛ الزاني عندهم يرجم والمتواطئ معه يدفع غرامة كبيرة جدا ويجلد خمسمائة جلدة ويُنفى من البلد[1].

إن بني ميزاب متدينون قويّو الإيمان، محلفون ضد الكذب وإنهم ليموتون جوعا قرب الأمانة ولا يمسونها بأذى، وإذا قال لك أحد من بني ميزاب الله معك، نم مرتاح البال إنه يحرسك. بصفة عامة هم قنوعون، فإنهم لا يأكلون إلا الأكل الذي يطبخونه في بيوتهم وبأنفسهم[2] وهم لا ينشقون ولا يدخنون لأن ذلك محرم عندهم، وهم يكرهون شرب الخمور ولو أن أحد اليهود أتى لشراء الخمر فإنهم يفتشون منزله ويفتشون كل منازل اليهود مثله وتجمع بذلك قلل الخمر والنبيذ وتكسر بالساحة العمومية[3].

تناول أيضا فئة اليهود في المنطقة، ومثلما هو الحال بالمراكز الكبرى بالصحراء فإن بعض اليهود انسلوا بين بني ميزاب وهذا أكثر من أي مكان آخر حيث وجدوا تسامحا مضيافا لشرط واحد ولكنه شرط صارم وهو إذعانهم وخضوعهم لقوانين المنطقة[4] واحترامهم لعادات مضيفيهم ولهم بذلك حرية العمل التامة. ويمكن لهم بناء كنائسهم ومدارسهم، ويسمح لهم بأن يرتدوا تقريبا نفس ملابس بني ميزاب لكن حتى يُعرفوا فهم مضطرون إلى وضع منديل أسود حول رؤوسهم ولا تلبس نساؤهم الحايك ... ومع ذلك فهم تجار ويمتهنون تنظيف الصوف وصاغة (باعة الذهب)[5].

ووصف الشكل الجغرافي للمنطقة قائلا: "بلد بني ميزاب يمتد من القرارة شرقا إلى متليلي غربا ومن شبكة بني ميزاب إلى خط لا متناهٍ بنصف الطريق من ورقلة إلى غرداية، بلد بني ميزاب بجهته الشمالية عبارة عن منحدرات وجبال صخرية شديدة الانحدار كثيرة أين توجد ما يقال بأنه معادن الذهب والنحاس. المدن الأساسية لبلاد بني ميزاب هي : غرداية، مليكة، بونورة، بني يزقن، العطف، بريان والقرارة"[6].

---

[1] - Ibid, pp 55.
[2] - Ibid, pp 56.
[3] - Ibid, pp 56.
[4] – تخضع فئة اليهود في منطقة وادي ميزاب لقوانين صارمة ودقيقة من مجلس وادي ميزاب في التعامل معهم وحدود السكن والملكية وممارسة التجارة والعبادات ودفع الجزية المفروضة عليهم وذلك لضمان الأمن الداخلي للبلد، ناصر بلحاج، المرجع السابق، ص 114-119.
[5] - Ibid , pp 57.
[6] - Ibid , pp 58 .

ويأتي في جزء ويقدم شرحا تفصيليا لمدن وادي ميزاب من الناحية العمرانية ويفصّل:

- **غرداية:** على الضفة اليمنى من وادي ميزاب تقع على خط طول 20°00 غربا ودائرة عرض 25°33 شمالا، هي بلدة بحجم العاصمة تقريبا ,سور الحماية خاصتها مبني على تسع دورات محصنة ومعززة يحتوي على نوافذ حراسة وبإمكانه أن يسع مابين 300 و 400 مقاتل، محاطة بمجموعة من الكهوف تسمى كاف، سلاسل جبلية صخرية تسمى "جبل مازج" الذي بدوره يربطها ب 12 موضعا في الشمال، وتربطها بالشرق مجموعة من التلال تختفي تدريجيا في الرمال. تحتوي غرداية على 10 بوابات رئيسية هي باب البرابشية، باب سالم وعيسى، باب الرحي، باب الجديد، باب أولاد نايل، باب المرارة، باب الخراجة وباب الحوش[1].

منازل غرداية مبنية بإتقان ومطلية بالجير الأبيض، توجد بها 6 مساجد ضمنها واحد كبير جدا، تتواجد المقابر خارج الأسوار، مساحات رعي واسعة (واحات) تسقى عبر آبار تحيط بالمدينة يبلغ عمق بعضها 100 إلى 150 ذراعا، يتم فيها زراعة العنب، التين الشوكي، الخوخ، المشمش، التفاح، الخضر بأنواعها. نلاحظ عدم زراعة البرتقال ولا الليمون لكن يوجد الليم[2].

المناطق المحيطية عبارة عن أودية وجبال؛ الجبال الرئيسية: بوعزيزة، بوحميد، بن جبلين، بابا سعد، باب الجمعة وسيدي عيسى[3].

وتكلم أيضا عن النشاط الفلاحي والزراعي بالمنطقة والتنظيم الإجتماعي لها والنشاط الإقتصادي والتجارة الخارجية والقبائل التي تتوافد عليها بسبب هذه التجارة. ويذكر "بسبب ندرة الأمطار فإنه غالبا من غير المجدي زراعة الحبوب , غير أنه كاف أن تمطر مرة واحدة وبغزارة لتنتج الأرض لسنتين أو ثلاث بعدها وبكميات كافية لحاجات السكان، تُوَفّر الحاجات الرئيسية من القمح والشعير عن طريق جلبها من التل"[4]

[1] - Centre de documentation saharienne Ghardaia algérien,Numéro du dossier 01 92 0 000 12, boite 01236801, Aprerçu sur le mzab, Dumas, page 1.

[2] – نوع من المحاصيل الزراعية ليس من البرتقال ولا الليمون يمتاز بمرارة مذاقه.

[3] - Ibid , pp 1.

[4] - Ibid , pp 1.

ينتقل بعدها للحديث عن السياسة فيقول عن هيكلة السلطة أنه " يحكم غرداية مجلس وطني مكون من 12 عضوا[1]، يرأسه قائد أعلى، غير أنه لا يستطيع أن يقرر أي قرار دون الرجوع إلى الحاكم الديني المسمى ب"بابا الشيخ " والذي تكون كلمته معززة بالقانون الشرعي، ليس فقط في غرداية إنما في جميع مدن المنطقة. وعليه، فهذه الحكومة بعبارة أوضح هي حكومة دينية (ثيوقراطية). لدى اليهود حي خاص بهم في غرداية يسمى بزقاق اليهود ويعيشون في ظروف تحدثنا عنها مسبقا، يسمى قائدهم الديني بالشيخ أيضاً ولديهم البِيعُ خاصتهم[2]."

"ما تنتجه الصناعة المحلية ليست مهما جدا، تحيك النساء ملابس مصنوعة من الصوف: القندورة، البرنوس، الحايك...إلخ، يمتهن اليهود تصنيع وبيع المجوهرات، إصلاح وبيع السلاح والخردة...إلخ ويقومون أيضا بصنع البارود ولكن بكميات قليلة"[3]

"ومنه، فالمدينة واقعة تحت ضرورة التجارة الخارجية بحيث إن أهم السلع عبارة عن: الزيت ومصدره بوسعادة، القمح والشعير من التل، البقوليات، الحنة المجلوبة من الغرب، العبيد، الصبغات، ذوو البشرة السمراء المسمون بالفيلالي القادمون من الغرب، الأحذية، التوابل، الأواني الفخارية، ملابس الصوف والتي كان مصدرها تونس ثم انتقل بعد ذلك وأصبح من العاصمة"[4].

العرب الذين استقروا في غرداية هم : أولاد يعقوب، سعيد عتبة، المخادمة.

يوجد في غرداية آثار مدينة كبيرة يدعوها السكان الأصليون ب"بابا سعد". كانت مبنية فوق جبل، وهي عبارة عن تكتلات صخرية ذات أحجام مختلفة وتوجد بها بعض من الأحواض والساحات حسب ما أطلعنا عليه بعض الميزابيين الذين سألناهم؛ وحسب أسئلة أخرى طرحت توصلنا إلى أن تلك

[1] – يُقصد بها مجلس العزابة، " فمن ذلك عزابة وأحدهم عزابي وهذه اللفظة استعملتها لقبا لكل من لازم الطريق، وطلب العلم، وسير أهل الخير وحافظ عليها وعمل بها ... وإن حافظ على السير والعمل بها فقط سمي بها، وإن حصل العلم دون السير والعمل بها والمحافظة عليها لم يسم بهذا الإسم. وهي هيئة تقوم بتسيير شؤون المجتمع وتسييره ولها مكانة كبيرة في مجتمع وادي ميزاب. ناصر بلحاج، المرجع السابق، ص 32-33.

[2] - Ibid , pp 1.
[3] - Ibid, pp 2.
[4] - Ibid , pp 2.

الساحات كانت ساحات مزينة ومنظمة والتي بلا شك كانت أطلال المدن الرومانية القديمة التي في الصحراء[1].

- **مليكة:** مدينة تضم 200 إلى 300 منزل على الضفة اليسرى لواد ميزاب جنوب غرداية، مبنية فوق جبل يدعى بسيدي عيسى أو العرقوب، محاطة بسور حماية مدعم بثلاث دورات، يوجد بها 3 بوابات: باب العرقوب، باب الأطرش، باب الحميدو.

القبائل التي تضع عند أهلها الحبوب هي قبائل الارباع والشعانبة.

تحكم المدينة جماعة تستمد أوامرها من جماعة غرداية. مليكة هي المدينة المقدسة في ميزاب، المرابط الأكثر قداسة في البلاد "سيدي عيسى" مدفون بها ويستقطب عددا مهولا من الزوار. يوجد بها ثلاث مساجد أحدها واسع جدا و لايوجد بها يهود أبدا[2].

- **بونورة:** على بعد 400م نحو الجنوب؛ هي أصغر مدن ميزاب، رغم ذلك فيحيط بها سور الحماية رباعي الدورات، بواباتها الثلاث تدعى: باب السور، باب بني يزقن، باب مليكة. تحكمها جماعة تخضع بدورها لأوامر جماعة غرداية. تستقر بها قبائل قليلة يمارس قاطنوها الزراعة داخل الأسوار؛ توجد بها بعض الحدائق الخصبة[3]
- **بني يزقن:** على مسافة 600م نحو الجنوب من بونورة على الضفة اليمنى لواد ميزاب، حجمها أصغر قليلا من مدينة غرداية لكنها منشأة بشكل أكثر تماسكا ومحاطة بسور حماية خماسي الدورات. تدعى بواباتها ب: باب الانتيسة، باب العربي وباب القبلي؛ تستقر بها قبائل المخادمة.
- **العطف:** في جنوب بني يزقن على بعد 600م، بها حوالي 500 إلى 600 منزل محاطة بسور متعدد الدورات، فيها مسجدان ببوابتين، يستقر بها كل من المخادمة وبني علال.[4]

[1] - Ibid, pp 2.
[2] - Ibid, pp 3.
[3] – Ibid, pp 3.
[4] –Ibid, pp 3.

- **بريان:** تقع على بعد 900 (مكان)[1] من غرداية؛ عبارة عن قرية تضم 250 إلى 300 منزل، محاطة بسور تتخلله نوافذ وتسقى واحاتها بالآبار وبها مدارس ومساجد عدة. يستقر بها كل من المخاليف وأولاد يحي[2].

القرارة: تقع شرقي غرداية , على بعد مسير يومين على طول وادي السرين الذي يستمد مصدره من الشبكة. هي مدينة أكبر قليلا من غرداية، محاطة بسور عال جدا تتخلله ثلاث بوابات هي: باب العربي، باب الشرقي وباب الواد. يتميز المحيط بين القرارة وغرداية بطبيعة صخرية غير أننا نجد بعضا من شجر السدر والبطم[3] تحيط بواد النسا. تتميز حدائق القرارة بامتدادها وخصوبتها، يتم سقيها بواسطة آبار بصورة منتظمة؛ تخضع في إدارتها لجماعة غرداية لكنه ومنذ بعض الوقت أصبحت ذاتية الحكم ولها جماعة خاصة بها.

نستطيع ملاحظة وجود أربع شخصيات أوروبية بها وهم: ثلاث إسبان، ضابط فرنسي واحد يدعى بالحاج يوسف. القبائل الساكنة بها هي: المخاليف، العطاطشة، أولاد عامر، أولاد اونيس، الحرازلية، أولاد السايح، أهل الطيبات وأولاد سيدي بلقاسم وهي بالمناسبة عشائر من العرب[4].

إتحادية بني ميزاب هي مركز تقصده جميع قبائل الصحراء كل حسب حاجاتها، فتأتي كل منها للبيع والشراء. القبائل التي تقصد أسواق بني ميزاب بشكل كبير هي الكرايش، أولاد لكرد، أولاد شريف، الحلوية، فليتة، الهرار، الهجالات (العجالات)، العمور، أولاد سيدي الشيخ، العروات، كسال، أولاد زياد، أولاد نايل، أهل بوسعادة، أولاد سيدي زيان، أولاد ساسي، أولاد حركات، أولاد عمارة، لمباركة وعبيد الله، الحرازلية، العربة، أولاد يعقوب، سعيد عتبة، المخادمة، شعانبة بوروبة، المذابيح، المخاليف، أولاد يحي، أولاد السايح، سعيد أولاد عامر، أولاد مولات، السالمية، أولاد سيدي بلقاسم، العربية، أهل

[1] – وجدناها هكذا في الترجمة ربما يقصد تقديرا لمسافة مابين مدينتي غرداية وبريان أو ما شابه ذلك.

[2] – Ibid , pp 3.

[3] – هي نباتات صحراوية تتحمل الحرارة العالية في الصحراء وقلة الأمطار.

[4] – Ibid , pp 4.

نفتة، أهل ورقلة، أهل الواد، أهل السوف، أهل تقرت، أهل تماسين، أهل قورارة، أهل القلع، الطوارق، العروات، عين ماضي، تاجموت، قصر الحيران، أولاد المختار بن عودة، رحمان، المفتاح والدويرة[1].

تجلب هذه القبائل إلى بني ميزاب الصوف بكميات كبيرة، القمح والشعير، زبدة الغنم، الأحصنة، الحمير، البقر، الزيوت، العبيد، الحنة، البارود، أنياب الفيلة(العاج)، بودرة الذهب، ريش النعام، البقوليات والحمص، الطاقيات، الحزامات، الأحذية، الهنديات، ملابس الصوف، الحرير، اللحافات، التوابل، الزئبق، السلاح، الأقفال والأواني، السكر، الصبغات، التمر، النحاس، الحديد، الزرابي، الغزلان والنعام الحي؛ منذ وقت قصير,كان مصدر هذه السلع يأتي من تونس ثم انتقل بعدها إلى العاصمة.[2].وفي حال ما كانت مصادرنا مباشرة من المنطقة الأولى في الصحراء، ستصبح طرق التجارة أكثر أمنا من طرق تونس وعليه فستُحتكر كل تجارة ميزاب[3].

وفي هذه الشق، تناول العلاقات السياسية الخارجية لمنطقة وادي ميزاب آنذاك مع الأمير عبد القادر[4] ويقول:"لم تنشق عناصر الشغب التي تركها عبد القادر[5] في الصحراء وفي بني ميزاب خصوصا عنه أبدا بحيث كانوا يقيمون علاقات يعتمد عليها الأمير في حال ما توغلوا في الصحراء؛ عندما وصل عبد القادر إلى عين ماضي أرسل إلى بني ميزاب برسالة يأمرهم فيها بالخضوع له والاعتراف بحكمه متحججا بقوله أن الله اصطفاه ونصره على جميع المسلمين أتباعه، وأنهى تلك الرسالة يتوعد كل ميزابي...أجابه أهل المنطقة بما يلي : (لن نحيد عن السبيل الذي اتبعه أجدادنا، سيدفع لك رحّالتنا وتجارنا في البلاد التي يجتازونها بذات الغرامات التي كانت تُدفع للأتراك[6] لكننا لن نُسَلّمَكَ مدننا، وفي

---

[1] - Ibid ,pp 5.

[2] - Ibid , pp 5.

[3] – لقد بين الكاتب هنا النية المبيتة لولية نعمته فرنسا في اكتشاف مناطق الصحراء كالمرحلة أولى ثم السيطرة على على الطرق التجارية وبعدها الإحتلال النهائي للمنطقة.

[4] – – هرباش زاجية، المرجع نفسه.ص 30 .

[5] – استعمل الاسم دون كنية لأن هذه اللفظة تعبر عن مدلولين في رواية الكاتب: أولا التقليل من شأن الأمير عبد القادر وثانيا الكره المعلن لشخصيته.

[6] – كانت العلاقة بين وادي ميزاب والعثمانيين بالجزائر تتمثل في دفع رموز الولاء للإيالة أو الضريبة السنوية وبقيت المنطقة في إستقلال تام في تسيير أمورها الداخلية ولم يحدث ذلك الذوبان في الجزائر العثمانية , انظر : ناصر بلحاج , المرجع السابق , ص ص 94_95

اليوم الذي ستأتي فيه بقوانينك ومقاتليك إلينا لن نتردد في الدفاع عن أراضينا ونقسم لك أننا سنقاتل حتى آخر رمق؛ تتوعدنا بقطع طريقنا عن التل غير أنه بحوزتنا ما يكفينا للبقاء على قيد الحياة. تهددنا بقتل جميع بني ميزاب الذين يسكنون المدن تحت حكمك، أقتلهم لو أردت ذلك لا يهمنا، إن الذين غادروا ديارنا ليسوا منا أصلا، وتمادى في فعلتك وحنطهم، وإذا نقصك ملح من أجل تحنيط جثثهم سنزودك بما يكفيك لذلك (وأعلى مافي خيلك إركبه[1]).[2]

اغتاظ عبد القادر[3] من جوابهم لكنه كتم غيظه حتى عودته إلى "تاقديم"[4] وما إن وصل إلى مركز حكومته أمر بسجن جميع بني ميزاب الموجودين في كل من المدية، مليانة، تازة، معسكر، تاقديم...إلخ. وعلل سبب ذلك بأن بني ميزاب أرسلوا بالدعم إلى " تاجيني" أثناء ذهابه إلى عين ماضي[5] ماضي[5] معينين بذلك مسيحيي الجزائر ووهران لكنهم لم يكونوا في الواقع سوى مسلمين منشقين[6]. ورغم ورغم ذلك لم يجرؤ على التمادي في العقاب أكثر من السجن لأنه لم تكن له حجة بالغة وكان يعارضه في ذلك الرأي العام وطالبوه بإطلاق سراح المسجونين الأمر الذي لم يفعله سوى أن ألزمهم بدفع غرامات أفقرتهم وأجبرتهم على التسول"[7].

هذا مضمون الرسالة ما دار بين الأمير عبد القادر وأهل منطقة وادي ميزاب كاملة دون نقصان على رواية "دوماس". إن هذه الرسالة بمضمونها ورغم أن الكاتب لم يذكر تاريخها وتفاصيلها بالضبط ونرجح أنها مابين 1832 و1845 تبين العلاقات السياسية الخارجية لمنطقة وادي ميزاب، فمنطقة وادي ميزاب حافظت على نظامها الداخلي وتسيير شؤونها بنفسها ولم تنضم إلى الدولة العثمانية في الجزائر قبل الاحتلال. وعلى حسب هذه الرسالة فقد رفض أهل وادي ميزاب الانضمام تحت لواء الدولة الجزائرية الحديثة التي أسسها الأمير حفاظا على خصوصية منطقتهم وإدارة حكمهم بأنفسهم، هذا على

[1] – مثل "أعلى مافي خيلك إركبه" أي إركب أفضل الخيل لديك وقم بترويضها ويقال كناية عن إفعل ماشئت.

[2] – Ibid, pp 6.

[3] – يقصد الأمير عبد القادر.

[4] – يرجح أنها في منطقة معسكر مركز حكومة الأمير عبد القادر الجزائري.

[5] – منطقة في الأغواط إلى حد الآن.

[6] - Ibid , pp 6.

[7] - Ibid , pp 6.

حسب مصدر الرسالة إن كان صحيحا وهل يمكن فعلا الاعتماد على صحته؟ فنحن لا نستطيع أن نجزم بأنها صحيحة في غياب الوثيقة الرسمية للرسالة.

المبحث الثاني: كتابات السيد بول سولاييه:

أولا: التعريف بشخصية بول سولاييه:

ولد بول سولاييه بفرنسا سنة 1812، كان مولعا ومهتما باكتشاف وزيارة الصحراء الجزائرية إذ بدأ التحضير لرحلته منذ سنة 1866 فقد درس كتب التاريخ والجغرافيا والكتابات الاقتصادية الخاصة بها أيضا، وتعرف عن كثب على العادات والتقاليد لسكان الجزائر وتمكن من تعلّم لغتهم[1].

غادر مارسيليا يوم 6 ديسمبر 1872 متجها إلى الجزائر العاصمة ثم إلى عين صالح، اتجه سولاييه إلى الجنوب عن طريق الأغواط وغرداية ثم دخل متليلي التي بقي فيها إلى غاية 4 فيفري 1873 في ضيافة "الشيخ سليمان " إلى أن غادرها نحو ورقلة. بدأت رحلة الاستكشاف الحقيقية والفعلية لبول سولاييه حيث يرويفي المذكرات الخاصة به يوم 19 فيفري 1873 مايلي: "اليوم أبدأ الرحلة الاستكشافية الحقيقية حيث سأتواجد في أصقاع ليست معروفة كثيرا وسوف أجتاز أرض لم تطأها قدم أوروبية من قبل"[2].

تحركت البعثة من متليلي إلى عين صالح، وفي اليوم الثالث والعشرين من فيفري من نفس السنة وصلت القافلة إلى مدينة المنيعة بحيث كانت تتكون من 26 فردا وعشر جمال وثلاث خيول. بعد ذلك غادرت في 27 فيفري إلى عين صالح جنوبا، والتي بلغ مشارفها واقترب من الدخول إليها لكنه لم يتمكن من ذلك بسبب رفض أهالي المدينة فتح الأبواب له واستقبال البعثة، بمعنى آخر تم طرد البعثة ومنعها من الدخول وهذا ما اضطره إلى العودة أدراجه وبالرغم من ذلك فقد أرَّخ وكتب معلومات هامة جدا خاصة حول "هضبة تادميت" وما جاورها والتي استفادت منها سلطات الاحتلال الفرنسي في توسعها عبر الصحراء[3].

---

[1] – عبد القادر بوباية، دور الرحالة والمستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، مجلة العصور، العدد 5/4، ديسمبر 2003 – جوان 2004، ص 159.

[2] – رفاف شهرزاد، الاستكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية من القرن 19م، مدارات تاريخية، دورية دولية محكمة ربع سنوية، المجلد الأول، عدد خاص، أفريل 2019، ص194-195.

[3] – عبد القادر بوباية، المرجع السابق، ص 159 .

ثانيا: منطقة وادي ميزاب من خلال كتاب "إفريقيا الغربية[1]":

لقد قدم هذا المستشرق عند زيارته لمنطقة وادي ميزاب نظرة شاملة دقيقة عن المنطقة فقد كتب عن المدن السبعة للمنطقة ووصف رحلته خلالها مهتما بجميع جوانبها من تضاريس وطبيعة وحتى طبيعة السكان وعاداتهم واستهل حديثه عنها قائلا ما يلي" أمضيت شهر فيفري وجزءا كبيرا من شهر مارس في زيارة متفحصة لميزاب وقمت برحلات طويلة نسبيا في كل من القصور السبع للإتحادية. يطلق لقب "بني ميزاب" على إتحادية مكونة من 7 قصور موزعة على أربعة واحات على بعد 600 كلم من جنوب العاصمة، بين الأغواط شمالا ومتليلي جنوبا.

أولى الواحات التي نجدها عند قدومنا من الشمال[2] هي:

- **بريان:** حُدِد موقعها فلكيا سنة 1850 من طرف أ.م رونو وهي عبارة عن قصر واحد فقط. قصر بريان يسكنه من 4 إلى 5 آلاف نسمة؛ تنتج واحاته أجود أنواع التمور في ميزاب كلها.

تأتي بعدها على بعد 40 كلم جنوبا , ماندعوه ميزاب فعليا تضم 30 ألف نسمة يتوزعون على على 4 قصور متباعدة بمسافات بين 4 إلى 6 كلم واحد عن الآخر , يشكلون رباعية كل واحد منها مشيد فوق قمة تلة وهي كالتالي :

- **غرداية:** في الشمال، قصر يضم من 14 ألف إلى 16 ألف نسمة بحيث أكثر من ثلثهم ليسوا إباضيين. غرداية هي القصر الوحيد الذي يتواجد فيه اليهود ويعيشون في حي خاص بهم مكون من 50 إلى 60 عائلة، يوجد بها أيضا سوق للجمال وحدائق ذات بهجة.
- **بني يزقن:**في الغرب وهو قصر يضم حوالي من 10 إلى 12 آلاف نسمة، جميعهم ميزابيون (إباضيون) وهي حاليا أكثر مدن ميزاب إزدهارا. توجد بها تجارة مهمة وفيها يعيش أغلب العبيد الذين جلبهم سكان عين صالح من الجنوب.

[1] -L'Afrique occidentale, Paul SOLEILLET, Avignon imprimerie de E Segun Ainé, 1877, pp 69.
[2] -Ibid, pp 69.

- **بونورة:** جنوباً،: تعتبر أكثر مدن الإتحادية أهمية غير أنها أضحت ركاما فقط، أصبحت على هذا الحال بسبب نزوح سكانها المتكرر. لا يتجاوز اليوم عدد سكانها 2000 نسمة أغلبهم من الرجال المنفيين من المدن الأخرى.
- **مليكة:** في الجنوب الغربي،يعتبر أكثر قصور الإتحادية قداسة، مكان وموطن الشيخ بابا، وتضم حوالي 4 إلى 5 آلاف نسمة، عدد منهم شعانبة ينحدرون من مدينة متليلي"[1].

ثم تطرّق إلى القصور التي تقع بعيدا قليلا عن بقية القصور الأربعة بحيث ذكر في شأنها ما ملخصه كالتالي:

- **العطف:**على بعد 12 كلم من الجنوب الشرقي، قصر واحد يسكنه ما بين 5000 إلى 6000 نسمة، تتواجد بها أجمل حدائق ميزاب وتنتج أكبر محاصيلها.

القرارة: على مسافة 60 كلم إلى الجنوب الشرقي من العطف، القصر الواقع بأقصى شمال الإتحادية ويتميز بموقع جغرافي مهم، وهو عبارة عن قصر واحد يضم 7000 نسمة يحيط به سور الحماية المدفون نصفه تحت الرمال ويتواجد به نزل ذو أربعة طوابق مخصص لاستقبال الزوار والضيوف والذي غالبا هو الوحيد من نوعه في الصحراء برمتها[2].

إن الانطلاقة التي بدأ بها بول سولاييه في وصفه لواد ميزاب تدل على البراعة والعلم الجيد بالجغرافيا، فقد قدم رؤية دقيقة من بريان أولا إلى القصور الأربعة التي هي داخل حفرة الوادي وكانت نظرته بليغة ألمت بالمطلوب والمقصود.

عند انتهائه من وصف القصور السبعة ابتداءا بالخمسة المتجاورة منها إلى الاثنين البعيدين نسبيا، تطرق بعدها إلى وصف المجتمع والدين والأحكام والنظم التي تسيره وعدة أمور أخرى سنأتي على ذكرها لاحقا.

يقول سولاييه فيما يخص سكان ميزاب أنه "يسمى القاطنون بوادي ميزاب "ميزابيون" أو "بني ميزاب" وهم عبارة عن بربر يقدر تعدادهم ب60 ألفا حافظوا على نقاوة عرقهم من الاختلاط واعتنقوا

[1] - Ibid, pp 69.
[2] - Ibid, pp69.

فيما يلي الإسلام كحال غالبية البربر. إن هذا الانقلاب الذي يحصل في جميع أمم إفريقيا الشرقية هو الحدث الأكثر إثارة للفضول الذي سجله التاريخ، وبهذا يقصد بول سولاييه الفتح الإسلامي لمنطقة المغرب واعتناق البربر للإسلام، وفي تعليقه عن الأمر يقول أنه سنة 643 ميلادي كان يقطن بالمغرب سكان مسيحيون ويهود والذين جميع الأولين منهم وغالبية الآخرين اعتنقوا الإسلام ولم يكن ذلك تحت أي ضغوط أو إكراهات على عكس أولئك القاطنين بشبه الجزيرة العربية ومصر...إلخ والذين بقي أغلبهم على دينهم مقابل بقائهم تحت الحكم الإسلامي"[1].

"الميزابيون وكما ذكر هم مسلمون أيضا لكنهم لا ينتمون إلى أي من المذاهب الأربعة الأساسية بل إلى ما يعرف بالمذهب الخامس، عقيدتهم قائمة على القرآن وهم في هذا لا يتبعون أي تفسير معروف ولا يقرون بالسلطة الدينية لأي إمام ذلك أنهم يؤمنون أن المكانة الرفيعة لا تكتسب بالنسب أو الانتماء. أما فيما يخص تطبيقاتهم للتعاليم الدينية فقد حافظوا على العديد من الممارسات والشعائر التي تماثل في ظاهرها الشعائر المسيحية واليهودية"[2]. إن هذا التشبيه الخطير بين طبيعة الكتابات عند هؤلاء الرحالة ووصفهم لشعائر إسلامية خالصة على أنها ممارسات مسيحية ويهودية وذلك في محاولة لإبعاد المسلمين عموما عن دينهم وانتماءاتهم.

ويذكر أيضا:"على سبيل المثال، فإنهم يتوضؤون للصلاة بطريقة أكثر شمولية من وضوء باقي المسلمين العرب، ويوجد عندهم في مساجدهم حجرات خاصة للغسل لكامل للجسد وهذه ممارسة يقوم بها اليهود أيضا مثل ما جاء في تعاليم موسى"[3].

يشير الكاتب عن طقوس ميزاب قائلا "في وقت معين، يجتمعون في المقبرة لإقامة صلاة ووليمة في أحد المنازل المعدة خصيصا لذلك الغرض والتي يوجد مثلها في جميع مقابرهم". ويذكر أيضا "تلك كانت طريقة مسيحيي إفريقيا في الحكم على من ارتكب خطيئة كبرى، إذ يجتمعون للحكم عليه بالنفي ويمنع التواصل معه أيضا وبذلك يعد غريبا وتؤول ملكياته سواء إلى سلطة المسجد أو توزع ميراثا على من لهم الحق فيه. يدخل هذا المنفي في حكم الأموات ويصبح بذلك في نظرهم غير طاهر ولا يسمح له دخول أي من مدن ميزاب وممنوع على أي أحد في ظل هذا الحكم إيواؤه أو إطعامه دون إمكانية تعريض نفسه

[1] - Ibid, pp 69.
[2] - Ibid, pp 74.
[3] - Ibid, pp 74.

للعقاب وفي ذلك يعتبر حتى تقديم الماء مخالفة للحكم، ويزاد على ذلك حتى التعامل والتواصل معه بأي شكل ومن خالف هذه الأحكام فأنه يدفع غرامة مقابلها"[1]

يستأنف حديثه عن الأحكام الدينية بقوله "تستوجب المخالفات في ميزاب كبيرة كنت أم صغيرة دفع غرامات، وبذلك فإنه في نظامهم، بإمكان أي فرد خالف حكما ما أو ارتكب مخالفة أن يتقدم يوم الجمعة قبل الصلاة أمام جموع المصلين في المسجد خاضعا متأسفا ويسأله الإمام عن طلبه فيقر بذنبه ويذكره ثم يطلب الغفران وبعد ذلك يوبخه الإمام ويسأل له المغفرة ومن أراد الزيادة، فإنه يطلب أداء كفارة إذ يحرم من أي تواصل مع من حوله لمدة معينة بناءا على سوء الخطأ"[2]

ويتساءل" أليست هذه طقوس الاعتراف العلني والتكفير التي يقوم بها أتباع المسيحية خلال القرون الأولى؟" بطبيعة الحال كتابات المستشرقين تذهب إلى هذه النزعة، وتربط كل ما كتبوا عنه بالمسيحية أو شعائرها ليربطوا بذلك المنطقة وخصائصها بما يعتقدونه هم في أوروبا.

يضيف سولاييه فيما يتعلق بهيكلة السلطة القضائية والدينية قائلا: "السلطة الدينية (الجماعة، مسجد) تعرف بتسمية بسيطة هي "الطُلبة" والتي لها شأن كبير في ميزاب في حين أن السلطة المدنية تقع تحت حكم الجماعة والتي بدورها لها السلطة المطلقة في الحكم داخل جميع مدن الاتحادية. هذا المجلس الديني يشبه في هيكلته مجلس الحكم الكنسي الروماني، إذ على رأسه نجد قائدا يسمى: الشيخ بابا، ويتم تعيينه من طرف رئيس الطلبة في كل مدينة وهؤلاء الأخيرون يكونون فيما بعد تحت رئاسته ويعين هو بذلك أعضاء هذه الجماعة"[3].

أما في خصوص السلطة القضائية، فهي تقع برمتها تباعا في يد الأئمة هؤلاء إذ هم المسؤولون عن إصدار الأحكام وإقرارها. بعض من هذه الأحكام نذكرها فيما يلي:

- ✓ "ممنوع على رجال بني ميزاب الزواج من امرأة من عرق مختلف، وكل من يُخالف هذا الحكم يتعرض للنفي نفيا دائما.

[1] - Ibid, pp 74.
[2] - Ibid, pp 74.
[3] - Ibid, pp 74.

- ✓ لا يمكن للنساء المتزوجات ولا الفتيات أيضا مغادرة ميزاب إلا في حالات نادرة ومن تخالف الحكم فستتعرض للنفي أيضا.
- ✓ لا يمكن للميزابي السفر خارج ميزاب دون أن يكون متزوجا أو بدون أولاد، ومن ينوي السفر يتعهد بأن له زوجة حاملا قبل المغادرة. هذاالقانون أصبح مهملا في الفترة الأخيرة.
- ✓ العقوبات التي يقررها الطُلبة تتمثل في النفي مؤقتا أو دائما فيما يتعلق بالمخالفات الكبرى، أما في تلك الصغرى فيُعَاقب مرتكبوها بالفلاقة (الضرب على الرجلين). أما في خصوص عقوبتي السجن والحكم بالموت فليستا مقررتين"[1].

هذه بعض من الأحكام والقوانين التي تحضى بعناية خاصة ويكون تطبيقها بالغ الأهمية نظرا لنظم المجتمع الميزابي المحكمة وقوانينه المشددة سعيا للحفاظ على النظام ومنع التسيب والفوضى من الحدوث.

يضيف سولابيه فيما يخص صلاحيات الجماعة معلقا بأنه "للمسجد مجموعة كبيرة من الممتلكات (الأوقاف أو الحبوس) تحت تصرفه، وكل مواطن مطالب بالمساهمة في صندوق المسجد حسب قدرته"[2] وهذا دليل على تماسك المجتمع ومساهمة أفراده فيما بينهم وتكافلهم كما هو دليل أيضا على سلطة الإدارة وتحكمها وتسييرها لجميع موارد ومصادر دخل المجتمع.

تمتد صلاحيات الجماعة لتشمل الإشراف على سجلات الحالة المدنية والشؤون الاجتماعية، فنجد أن سولابيه لاحظ ذلك وعلق عليه بقوله" الزواج لى ميزاب عقد جدي؛ تُبنى الأسرة حسب مبادئ تشبه في مضمونها المبادئ التي يبنى علبها الزواج الغربي، فالميزابي يتزوج بامرأة واحدة فقط يدفع لها مهرا مقابل زواجه منها. ورغم أنها لا تخرج من البيت إلا نادرا إلا أنه من حق هذه الأخيرة زيارة بيت أهلها وأقاربها متى أرادت بالإضافة لاستقبال الضيوف الذين يزورونها. يمكن أن يحدث الطلاق لكنه أمر نادر ونادرا ما يوافق الطلبة على الموافقة عليه"[3].

فيما يخص الشؤون الاجتماعية والقضايا العامة ذكر سولابيه أنها تقع تحت مسؤوليته الطلبة كذلك وهو المكلفون بالنظر فيها وتسيير أمورها وجميع ما يتعلق بها فقد ذكر في هذا الشأن قائلا "الأئمة في

[1] - Ibid, pp 77.
[2] - Ibid, pp 77.
[3] - Ibid, pp 77.

ميزاب ليسوا مسؤولين عن تدوين سجلات الحالة المدنية فحسب، بل إنهم يدونون كذلك جميع القضايا والأحداث ذات الأهمية؛ يتم الاحتفاظ بتقارير مفصلة عن الاجتماعات التي تقام برئاسة الشيخ بابا في جميع الفترات والتي يتم عبرها إصدار الأحكام الشرعية وإقرار جميع تلك المتعلقة بمنطقة ميزاب بجميع قصورها"[1].

إن احتكاك بول سولاييه بالمجتمع الميزابي وتعامله مع أفراده مكنه من دراسة الهيئة الفيزيولوجية لهم وملاحظة مميزاتهم البنيوية فقد لخصها في مقولته "يعتبر بني ميزاب من البربر لذا فإنه من النادر أن نجد فيهم عرقا أشقر أو مواصفات عربية خالصة...يتميزون ببنية أجساده الصغيرة لأنه وحسب الاعتقاد السائد يرجع ذلك إلى تواجدهم أغلب الوقت داخل محلاتهم غير أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحا إذ أن يهود الصحراء يتمتعون ببنى جسدية ضخمة رغم مزاولتهم لنفس نشاط بني ميزاب" ويعلق سولاييه على بنية الميزابيين حسب تحليله فيقول "يرجع قصر قامة بني ميزاب حسب اعتقادي إلى طبيعة عملهم أثناء مراحل طفولتهم بحيث يقوم الواحد منهم بأعمال السقاية والفلاحة مثلما هو الحال بالنسبة للذين يسكنون بمحاذاة البحر في أوروبا"[2].

ملاحظا اهتمامهم بالعلم وحرصهم على التعليم وتنشئة الأجيال على طلب العلم والتحصيل العلمي، علق عليه إذ قال " بالرغم من انشغال الشباب بالعمل أغلب الوقت إلا أنه لم يتم إهمال الجانب التعليمي لهم، فهم يُمضون ساعات عديدة من اليوم في مدارس تابعة للمسجد يسيرها الطُلبة ويتم فيها بالإضافة إلى التعاليم الدينية وقوانين ميزاب، القراءة والكتابة والحساب باللغة العربية. لا يتم تدريس المصطلحات البربرية في المدارس باعتبارها عامية مكتسبة. ويعمد العديد إلى تعليم أولادهم اللغة الفرنسية ليتمكنوا من فهمها والتحدث بها ويزيد بعضهم التمكن من كتابتها. يحرص أغلب ميزاب على تعليم أبنائهم ومن النادر أن يتركوا للتسيب ذلك أنهم يوقظونهم في الصباح الباكر للعمل في الحدائق لثلاث أو أربع ساعات ثم يرسلونهم بعد انتهائهم إلى المدارس للتعلم وبعد انتهائم من هذا أيضا فهم يعودون من جديد للعمل في الحدائق"[3]. من هذا الوصف، نلحظ اهتمام بني ميزاب بالجانب التعليمي موازاة

[1] - Ibid, pp 77.
[2] - Ibid, pp 77.
[3]- Ibid, pp 77.

بالجانب التربوي للأجيال الصاعدة وفي هذا دليل على حرصهم على تنشئتهم تنشئة صالحة ومحاولتهم لبناء مجتمع متكامل ومتعلم.

أما فيما يخص الجانب الاقتصادي، فيحلل سولاييه ذلك ويدلي برأيه إذ قال "يمتهن أغلب بني ميزاب التجارة، فهم يمتلكون محلات في كل من التل التونسي والجزائري لبيع مختلف أنواع السلع وممارسة مختلف المعاملات المالية والمصرفية...الصناعة في المنطقة على قدر جيد من التطور إذ أنهم يصنّعون البارود...وتمتهن النساء صنع الألبسة ذات الجودة العالية فمن بينها نجد البرانيس والحايك والزرابي المعروفة بها المنطقة في شمال إفريقيا والصحراء برمتها، تضمن لهم اليد العاملة الوفيرة وقليلة التكلفة توصيل المنتجات ودوام التدفق التجاري إذ انه بفضل هذه الصناعة تظل أسعار المواد الأولية كالصوف ذات سعر مرتفع غالب الوقت"[1].

لاحظ سولاييه مبادئ ميزاب في انطلاقهم في أشغال التجارة وحرصهم عليها فشرحها قائلا "تكون بداية العمل لدى ميزاب بتوكيلٍ من والد أو صديق أو رب عمل سابق، وذلك عبر الانطلاق نحو التل وبيع القماش المصنوع من الصوف. عندما يصل الميزابي إلى العاصمة، قسنطينة أو تونس أو أي مدينة تلية أخرى محملا ببضاعته فيقوم ببيعها ويوظف ربحه منها عبر افتتاح محا قصابة أو خضر ويشتغل فيه لمدة سنة أو اثنتين، وبينما هو كذلك يكون ف المقابل ميزابي آخر شريكا له متواجدا في منطقة ميزاب منشغلا بالعمل في الفلاحة والقيام بشؤون بيت شريكه الغائب أثناء غيابه وبعد مدة يتبادلان المهام فيرجع المغترب محملا بسلع متنوعة ويفتتح محلا في بلده ويغترب من كان مقيما وبذلك يكون الشريكان افتتحا محلا يمارسان فيه التجارة والذي في غضون سنوات قلائل يتوسع ويصبح له فروع كثيرة ذات استثمار كبير. يوجد اليوم العديد من بني ميزاب الأثرياء والذين لم تكن بداياتهم سوى هكذا"[2].

من خلال رحلات بول سولاييه عبر الجزائر عموما ومنطقة ميزاب خصوصا نلحظ اهتمامه البالغ بها والأولوية التي أعطاها لها وذلك أنه مهتم بالاكتشافات والعلوم من جهة ومن جهة أخرى لأن له مهمة حكومية هو مكلف بها لذلك فقد حرص أشد الحرص على إتمامها على أكمل وجه.

[1]- Ibid, pp 77.
[2] - Ibid, pp 77.

من خلال كتابه "إفريقيا الغربية" الذي تحدث فيه عن الجزائر ومنطقة ميزاب وتيلديكلت، عمدنا إلى الاطلاع على الجزء المتعلق بمنطقة ميزاب والذي تطرق فيه سولاييه إلى عدة جوانب تخص المنطقة، ابتداءا من موقعها الجغرافي وصولا للاستراتيجيات التجارية التي يتبعها السكان في بناء مشاريعهم دون أن يغفل التركيبة السكانية ونظام الحكم وكذلك التعليم فيها في كلمات مقتضبة وواضحة اعطي انطباعا عاما عن الحياة في منطقة ميزاب. ومن خلال بعض كتاباته نلاحظ ميوله لتشبيه بعض جوانبها بالحياة والشعائر المسيحية التي لا نستطيع الجزم بالسبب الحقيقي من ورائها، أهو لغرض علمي بحت أم محاولة لطمس معالم الهوية وذلك عبر التشكيك في أوصولها وتفردها؟

في الأخير، يمكننا القول أن سولاييه قدم معلومات مهمة من خلال رحلاته وكتبه والتي تساهم بشكل أو بآخر اليوم في ترسيخ تاريخ المنطقة وإثراء موروثاتها من تاريخ وثقافة وتراث وغيره.

المبحث الثالث: كتابات السيد زيس:

أولا: التعريف بشخصية السيد زيس:

نظرا لشُح المصادر وندرتها وغياب أي مصدر يهتم بالسيرة الذاتية للسيد زيس فإنه لا تتوفر إلا معلومات قلائل عن حياته وإنجازاته نذكر منها ما استطعنا جمعه واستخلاصه وهي أن السيد زيس كان أستاذا لامعا في مدرسة الاستشراق الفرنسي في الجزائر التي أُفتتحت سنة 1880 والمعروفة بمدرسة الآداب العليا؛ كان مهتما بالترجمة والنشر وتخصص في الجانب القضائي الفرنسي الذي استحوذ لاحقا على القضاء الاسلامي[1].; من أهم أعماله مجلدين عن الفقه الإباضي.

ثانيا: منطقة وادي ميزاب من خلال كتابات السيد زيس:

1- مقال "من الجزائر العاصمة إلى ميزاب"[2]:

عند زيارته لمنطقة وادي ميزاب، اهتم السيد زيس بالتركيز على عدة جوانب. فانطلاقا من وصفه لطبيعة الأرض وتضاريسها وتركيبتها الجغرافية لوصفه للتركيبة السكانية والطبيعة البشرية للأفراد أعطى نظرة شاملة عن المنطقة فصل فيها حديثه عنها ووصفه لها.

من خلال اطلاعنا على الكتاب وترجمتنا المتواضعة لبعض نصوصه التي وجدناها مصدرا مهما لمعلومات متعلقة ببحثنا. فيقول حسبه أن أصل تسمية ميزاب بهذا لهو جغرافي بحت إذ أنهم يسكنون المنطقة بواد ميزاب فانتسبوا لها. أما فيما يتعلق بالتسمية حسب النظرة الدينية فقد قال "يدعوهم المسلمون الآخرون بالخوارج (المنشقون) ولقّبوا أنفسهم بالوهبية نسبة إلى عبدالله بن وهب قائدهم في معركة نهراون"[3]

يذكر السيد زيس عن الدولة الإباضية قائلا أن "في سنة 761م، نجحوا في تأسيس دولة حقيقية اتخذت تيارت عاصمة لها ودامت حوالي القرن ونصف تحت حكم السلالة الرستمية. في عام 908م،

[1] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي – الجزء السادس، الطبعة 1 ,دار الغرب الإسلامي،بيروت , لبنان , 1998 م , ص26.

[2] - ZEYS, Voyage d'Alger au M'zab, Magasine du «le tour du monde».

[3] - Ibid, pp 308.

هُزِم آخر أئمتهم على يد الفاطميين ودُمِرت تيارت عن آخرها ومن نجا منهم لجأ إلى ضواحي ورقلة أين نجد إلى اليوم معالم إقامتهم...تمت مطاردتهم هناك أيضا فاتجهوا صوب واد مية سنة 1012 بحوالي 150كم باتجاه الشمال الغربي وأسسوا تباعا: العطف سنة 1012، بونورة وبن يزقن سنة 1047، غرداية سنة 1087، مليكة سنة 1350، القرارة سنة 1631، بريان سنة 1679"[1].

استهل السيد زيس رحلته من العاصمة نحو ميزاب يوم الاثنين 29 مارس سنة 1887، وفي مقاله عن رحلته هذه وصف جميع المناطق التي عبرها وما لاحظه عنها من الطبيعة إلى السكان وبعض الأحداث التي عايشها حتى وصل إلى منطقة ميزاب التي استتفتحها بمدينة بريان التي كانت أولى المدن التي حط رحاله فيها وتطرق لما رآه ووصفه كما يلي:

- **بريان:**فيما يتعلق بالطابع العمراني يقول زيس "كانت المنازل ديارا ذات طابع عربي لانوافذ خارجية لها ماعدا باب صغيرا وبها غرفة للضيوف؛ أثاثها بسيط يدل على التقشف وتتكون من طاولة وأرائك وبعض من الكراسي؛ جدرانها بيضاء بطلاء الجير"

ثم ينتقل في وصفه إلى الهندسة الحضرية للمدينة فيقول في هذا الشأن أن "الشوارع نظيفة، ضيقة ومتعرجة...مأذنة المسجد تميز المدينة بارتفاعها عن باقي البنيان وبشكلها الهرمي الذي يشابه مداخن المصانع.

يعرج السيد زيس واصفا حدود المدينة قائلا "اليسار مدينة بونورة، أمامنا بن يزقن وإلى اليمين مدينة مليكة "وأما فيما يتعلق بالمناخ فيذكر "عندما تسيل الوديان فإنها تحمل معها الخصوبة للبلاد والعباد؛ يعيش هؤلاء في رخاء لكنه من النادر لهذه الوديان أن تسيل إذ يحصل ذلك بمعدل مرة كل 13 سنة"[2]

يذكر السيد زيس ملاحظاته عن الطابع الفلاحي للمنطقة فيقول "نلاحظ أن النخيل هنا كثيف وضخم يبلغ ارتفاع بعضه 20 مترا. يقدر عددها ب27835 نخلة موزعة بمتوسط 250 نخلة في كل هكتار...يتم تزويدها بمياه السقي عن طريق 274 بئراً تسقي كل واحدة منها ما بين 45 إلى 100

[1] - Ibid, pp 308.
[2] - Ibid, pp 308.

نخلة...فتسمّى (جبّارة) فتصبح قادرة على إنتاج ما يّقدر ثمنه ما بين 12 إلى 15 فرنكا سنويا وتقدر قيمة القنطار المجني حديثا ب20 فرنكا"[1]

يعلق بعد ذلك السيد زيس على سكان المنطقة فيذكر تنوعه ويصف عاداته وتقاليده في قوله "تتكون المدينة من 300 منزلا ويقدر سكانها بحوالي 5000 نسمة من بينهم 250 عبيد حُرِّروا، 190 يهوديا يسكنون في أحياء خاصة بهم و190 نفرا مختلطاً ينحدرون من قبيلة أولاد يحي المجاورة"[2]

عبر تحليل طريقته في الوصف نلاحظ تدقيقه واهتمامه بالتفاصيل حتى المهمل منها الأمر الذي يعيننا في التعرف عن قرب عن مميزات المنطقة آنذاك.

لا يغفل السيد زيس عن ملاحظة الطابع الديني والسياسي للمنطقة وأهلها فنجده يقول معلقا على الآداب العامة فيها "بالنسبة لبني ميزاب، كان الأمر أكثر جدية وصرامة مما هو عليه لدى غيرهم. التدخين عندهم ممنوع أو بعبارة أخرى، التبغ كان من الحر مات التي تمس طهارة المؤمن الحقيقي حسبهم"[3] ثم ينتقل ليصف العادات المتعلقة بالطعام فيذكر حسن الضيافة والقيام بواجب الضيوف فيقول "بينما تلذذنا بطعم لحم الضأن المشوي، الكسكس الشهي، تمر بريان الموصى به وختمناه بحليب الماعز البارد"[4] ومن هنا يمكننا استنتاج عادات أهل المنطقة في استقبال الضيوف ونوعية الأطعمة التي توجد لدى منطقة وادي ميزاب.

وأخيرا فيما يتعلق بمدينة بريان وطابعها السياسي ونظام الحكم الديني والسياسي –اللذان هما في واقع الأمر واحد– فإنه يقول فيه أنه "من منظور سياسي، اتحادية بني ميزاب كانت ديمقراطية ثيوقراطية[5]. كانت القرارات والأحكام الخاصة بالمدن السبع من مسؤولية مجموعة مكونة من أعضاء الجماعة الخاصة بكل واحدة منها...كان من مهام الجماعة إصدار القرارات المهمة، تعيين الشرطة وفرض الضرائب وذلك بأمر من شيخ الجامع ومشورة معاونيه...شيخ الجامع ممثلا منصب الحاكم يكون منتخبا وأما مساعدوه فهم من أعضاء (الطُلبة) وهم من لهم العلم اللازم والمعرفة الكافية والالتزام الديني المطلوب يخولهم لتقلد

[1] - Ibid, pp 305.
[2] - Ibid, pp 305.
[3] - Ibid, pp 305.
[4] - Ibid, pp 305.

[5] – الأغلب أنه يقصد أنها كانت تعتمد مبدأ مجلس الشورى الدينية.

هذا المنصب...لم يك لدى بني ميزاب في السابق قضاة معينون بما قد تعنيه كلمة قاض فعليا، بل كان لأتباع الطائفة الحرية في اختيار عضو من الطُلبة حسب قناعتهم ويصبح هذا الأخير مصدر الفصل القضائي بيد أن الحكم النهائي يبقى محل نقاش وتفصيل من قبل المجلس المتواجد بغرداية"[1]

- **غرداية:** نجده يقول عن العمران في وصفه قائلا "استمتعنا بمنظر المدينة تحتنا، مبنية بكل متدرج تعتليها في القمة مأذنة المسجد وتتوزع في أسفلها أقواسٌ غير منتظمة...في الأسفل يوجد السوق الأكثر أهمية يرتاده أهالي ورقلة، الرحالة وغيرهم لبيع سلعهم المستوردة من عند الطوارق...المسجد بمأذنته ذات 92 مترا...باحاته الداخلية التي تتواجد بها نوافير المياه للوضوء...كانت هناك أشياء غرسية معلقة على الجدار السفلي، ملابس، أحذية، نعوش لحمل الموتى؛ أخبرونا أنها الأغراض الضائعة ويتم عرضها هنا كي يتمكن أصحابها من إيجادها لأن المسجد هو أكثر الأماكن التي يقصدها أهل المدينة"[2].

ثم يستفيض في تفصيل الهندسة الحضرية للمدينة فيذكر في هذا الشأن تركيبتها وبنيانها فيفصّل قائلا "للمدينة شكل مثلث طول أحرفه ما بين 500 إلى 600 متر وتضم حوالي 1200 إلى 1300 نسمة، يحيطها سور يحميها من الأخطار الخارجية غير أنه أصبح هشا وبه 3 بوابات متفرقة.

تتوزع المدينة في تقسيمها على 3 أحياء متمايزة:

- المركز والقمة، يعيش فيها الإباضيون حصرا متوزعين حول المسجد ويعتبر هذا هو الحي الأكثر تنظيما وقداسة.
- الجزء الشرقي، حي مخصص لليهود إذ هم معزولون عن بقية المدينة بسور يضفي عليه مظهر الحي الشعبي القديم.
- الجنوب الشرقي، يسكنه المدابيون، معزولون عن المدينة أيضا بأسوار أصغر"[3].

[1] - Ibid, pp 310.
[2] - Ibid, pp 312.
[3] - Ibid, pp 312.

ينتقل بنا بعد هذا السيد زيس بطريقة سردية وصفية ليروي لنا عادات المنطقة وتقاليدها فيتحدث عن المهرجان والاستعراضات المقامة به في ساحة السوق ويركز روايته على استعراض البارود والرقص الشعبي الذي يقوم به مجموعة من الرجال واحتفاء الموجودين بذلك.

ولا يغفل السيد زيس عن ذكر غياب النساء فيقول متعجبا "كان العنصر النسوي غائبا عن المشهد على عكسه في مدن الشمال...تظل النساء مغيبات ونادرا ما تراهن ولا يحدث أن تلتقي بهن في الأوقات العادية إلا نادرا"[1]

ثم يعلق على العلاقات الاجتماعية لسكان ميزاب مع اليهود القاطنين معهم فيقول "لا يحق ليهود غرداية امتلاك أي شيء خارج نطاق حيهم، سواء في المدينة أو الواحات...عددهم هنا مقدر ب500 نسمة...يمتهنون مهنا مختلفة من بينها دبغ الجلود بيع المجوهرات، بيع الأسلحة والإسكافية"[2].

من وجهة نظر إحصائية، أتى السيد زيس في مقاله على إحصاء ما تملكه مدينة غرداية من ممتلكات فذكر أنها "تضم حوالي64074 نخلة ولا تفاجئنا دقة الإحصاء ذلك أنه يتم دفع ضريبة عن كل منها ومن أجل ذلك فإنه يُعتنى بها بطريقة فائقة وتسقى عبر 1240 بئراً اكفي الواحدة منها لسقي 60 نخلة...يكلف جني محصول نخلة واحدة 15 فرنكا ويقدر مجموع المحصول كاملا في ميزاب حوالي 1 مليون فرنك"[3]

- **بن يزقن:** حسب أقوال السيد زيس في حديثه عنها في المقال، فهي تضم من 5 إلى 6 آلاف نسمة وتعد أكثر مدن ميزاب قداسة وثراءا وتنظيما. محاطة بسورالحماية ذو ال5 أمتار به برج مراقبة بلغ قطره 12 مترا وارتفاعه 25 مترا.

  أما فيما يتعلق بإحصاء غطائها النباتي فقال بأن بها 25874 نخلة ذات نوعية جيدة تسقى عبر 417 بئراً.
- **مليكة:** تتربع على مساحة 1200 هكتارا يضم 2865 نخلة تسقى عبر 173 بئرا وبذلك فهي تعد أصغر واحات ميزاب.

[1] - Ibid, pp 312.
[2] - Ibid, pp 314.
[3] - Ibid, pp 315.

- **العطف:** أقدم مدن ميزاب، سكانها ضعف سكان مليكة وهو إباضيون فقط؛ تضم 16483 نخلة تسقى ب343 بئرا.
- **بونورة:** تضم واحاتها 10000 نخلة.
- **القرارة:** على بعد 90 كلم من غرداية، بها 28000 نخلة.

نلاحظ هنا أن الكاتب لم يأتي على ذكر مفصّل فيما يخص كلا من بن يزقن، مليكة، العطف، بونورة والقرارة وهذا راجع ربما في حالة قصر القرارة لبعده عن الاتحادية فلم يتسنى له زيارته ربما أما بالنسبة للقصور الأخرى فربما ذبك راجع لتماثل أساسياتها مع كل من قصر غرداية وبريان الأمر الذي دفع به إلى اقتضاب الحديث عنهم وذكر ما هو مختلف أو مميز فقط.

2- **كتاب التشريعات الميزابية:** من خلال هذا الكتاب يتطرق الكاتب فيه، السيد زيس، إلى كل من تاريخ ولنقل هنا المذهب الأباضي بصفة عامة وبصورة شبه مفصلة عن نشأته وأسباب ظهوره وظروف تطوره إلى جانب مقومات انبنائه ثم يعرج في الجزء الثاني منه إلى الاهتمام بالقانون الأباضي بدءا به شكلاً فيعلق عليه ثم مضمونا.

يقول السيد زيس فيما يتعلق بأصل تسمية بني ميزاب في مقدمة كتابه تعقيبا على لفظ ميزاب أن "بني ميزاب، ميزابي، هي تسميات جغرافية بحتة، عُرِفوا أولا تحت مسمى عام (خوارج) وعليه فسكان وادي ميزاب يفترض أن تتم تسميتهم وهبية–أباضية نسبة لعبدالله بن وهب القائد الأول، وعبدالله بن أباض المشرع الأول والذي إليه يُنسب التشريع الأباضي"[1].

ثم يواصل السيد زيس من خلال الكتاب في الحديث عن أصل الظهور الأول لبني ميزاب فيقول "غير أن الخوارج ظهروا يوم 8 جوان 632م عندما توفي مُحَمَّد (ﷺ)، وبما أنه لم يكن له ولدٌ ولم يعين بعده خليفة أو على الأقل لم يحدد طريقة لاختياره، فقد كان محتما أن تنشق صفوف المسلمين متسببة في إراقة الدماء" ومن خلال هذه الإفادة يمكننا استنتاج، بناء على رواية السيد زيس، أن نواة ظهور المجتمع الأباضي ،ولو لم تتبلور فكرته بعد، إلى القرن السابع ميلادي بعد وفاة الرسول ﷺ.

[1] - M. ZEYS, Législation mozabite - son origine, ses sources, son présent, son avenir- , Adolphe Jouradn, Libraire-Edituer (Imprimerie-Librairede l'Académie), 1886, Alger, pp 05.

ثم واصل سرده لظروف نشأة هذه الطائفة وأسباب ذلك والتغييرات الحاصلة فيها فيعلق عليها بقوله "كانوا وكما كان الحال دائما، منقسمين إلى طائفتين: أولاهما المعتدلون (الأباضيون) والمتطرفون (الصُفريون) ولم يتحدوا سوى لرد هجوم مشترك"[1] ويعلق في حاشية التهميش عن هذا الانقسام قائلا "عبدالله بن صُفار هو ابن عم أو ربما الأخ الشقيق لعبدالله بن أباض. حصل الخلاف بينهما نتيجة العداءات المتكررة والتي ادّعى كل منهما فيها سموّه على الآخر. لم يكن الخلاف الديني سوى امتدادا للخلاف السياسي: كان من الواجب إنهاء هذا الخلاف ولم يحصل ذلك بسبب خلاف مذهبي بينهما إنما بسبب التركيز على الاختلاف العَقَدِي المعتنق من كل طائفة"[2]

ويستمر في سرد التاريخ الخاص بهم لحين وصوله إلى تاريخهم في إفريقيا فيقول "من المعلوم أنهم ورغم هزائمهم، فقد نجح الأباضيون في تأسيس تيهرت عاصمةً سياسية ودينية خاصة بهم...دامت هذه الإمبراطورية قرنا ونصفا وربما أكثر، دون صراعات، دون تحركات كما اعتاد البربر أن يفعلوا؛ وكان سقوطها أثناء آخر ولد من ذرية رستم الفارسي في بداية القرن العاشر، ذُبِح 8000 منهم، استُعبدت النساء وأحرقت المدينة بكاملها ولم يتبقى منهم سوى بعض لجأوا فرار إلى ورقلة...تمت مطاردتهم هناك أيضا وفي منتصف القرن الذي سقطت فيه تيهرت واستقروا في هذه الشبكة إلى جانب وادي ميزاب أين نلاحظ تواجدهم لليوم"[3].

بعد سرد تاريخي طويل ومفصل، يصل السيد زيس إلى استنتاجه قائلا "في المجمل، فإن الأباضية نشأت وازدهرت في ظل الحزام الرملي الذي يفصل عمان عن بقية العالم والذي يحميها ضد الهجمات الخارجية. وبفضل رحلة الحج فإنهم يلتقون بإخوانهم الجزائريين في مكة ولهذه الرحلة فضل حفاظهم على لهيب إيمانهم وأثنائها فقد تبادلوا العلوم، الأفكار، المشاعر وسعوا إلى الحفاظ على وحدة عقيدتهم وتماسكهم"[4].

ومن هنا، يمكننا بطريقة مختصرة القول أن ظهور الأباضية كان سياسيا بالدرجة الأولى وذلك بعد الاختلاف بين جموع المسلمين على أحقية الخلافة ولمن تؤول؛ فمن هنا بدأ تبلور هذه الفكرة وأصبحت

[1] - Ibid, pp 15.
[2] - Ibid, pp 15.
[3] - Ibid, pp 18.
[4] - Ibid, pp 25.

تتطور وتنتصر لنفسها تدريجيا إلى أن شكلوا عبر الزمان والمكان مذهبا قائما بذاته وطائفة مستقلة لها كيانها الخاص وقوانينها التي تحكمها وتنظمها وهو ما سنأتي على ذكره تاليا.

يهتم في الفصل التالي من الكتاب بالمذهب الأباضي على وجه التحديد فيقول فيه مُلِمًّا "لن أعرف أن أقدم عرضا كاملا للمذهب الأباضي دون إعطاء هذه المحاضرة الافتتاحية مدىً واسعا. وأنه سيكون من الكافي معرفة أنه يعتمد في أحكامه على التفاسير اللغوية (الظاهرية) للنصوص وعلى رأسها القرآن"[1]. من قوله، لربما يمكننا القول بأن الأباضيين اعتمدوا في تشريعهم الديني بصفة أساسية على تفسيراتهم الخاصة للنصوص الشرعية وهذا حسب الكتاب لا يزال محل نقاش.

نصل في دراستنا للكتاب إلى استنتاج أهم الكتب في التشريعات الأباضية فيقول زيس في شأنها "فمنذ زمن قصيرة فقط، استخرج الشيخ عبدالعزيز[2]من كل هذه الفوضى مختصرا سماه "النيل" وله لدى الأباضية ذات القدر من الأهمية مثلما لدى مختصر خليل ابن إسحاق. ومنذ زمن أقرب، ألّف الشيخ أطفيش تفسيرا للنيل مقتديا بذلك بالكرشي، الدسوقي، عليش، وجميع مفسري مؤلف خليل"[3] يعلق السيد زيس على النيل قائلا أن "كتاب النيل هو تعهد شامل للقانون الأباضي. كاتبها لشيخ عبد العزيز بن إبراهيم من بني يزقن...يشمل جميع القوانين الدينية والمدنية وحتى الجزائية للمذهب الأباضي"[4] والذي يمثل في مضمونه اختصارا للعديد من الكتب أشهرها "كتاب الإيضاح" للشيخ عامر المنحدر من جبل نفوسة.

وبما أن النيل هو أهم ما تحدث في التشريعات الأباضية فقد كان مقسما إلى أبواب عديدة تتعدى العشرين هي: "باب الطهارة، باب الصلاة، باب الجنائز، باب الزكاة، باب الصوم،باب الصوم، باب الحج، باب النذور، باب الأضاحي، باب الحقوق، باب الزواج، باب الطلاق، باب البيع،باب الكراء،

[1] - Ibid, pp 41.

[2] – الشيخ عبد العزيز بن ابراهيم من ين يزقن، ولد في الثلث الأول من شهر رجب 1167 الموافق لما بين 24 أفريل و3 ماي 1754 والمتوفي سنة 1223هـ الموافق ل1808-1809م. من أهم مؤلفاته: ذو النورين على مرج البحرين، مختصر معالم الدين، مختصر المنهاج المعروف بالسراج، الورد البسام في رياض الأحكام، عقد الجواهر المأخوذة من بحر القناطر، مختصر المصباح من كتاب أبي مسئلة، الألواح، مختصر في حواشي الترتيب، مختصر بالأسرار النورانية على شرح الرائية ومختصر في الأزواج.

[3] - Ibid, pp 46.

[4] - Ibid, pp 46.

باب الرهن، باب العدة، باب الهبات، باب الوصايا، باب القضاء،باب الطعام، باب الوفاة، باب الفرائض، باب الخلافة، باب العمل"[1].

يعلق السيد زيس على تقسيم هذه الأبواب في الكتاب متعجبا ومستغربا إذ يقول "وُزعت هذه الأبواب بشكل اعتباطي دون طريقة واضحة وبلا رابط منطقي، أسلوبها غامض وليس ذلك لرغبة في الاختصار إنما لعدم مقدرة على تركيب الفكرة في جمل مقتضبة لذلك وجب أن يكون للقارئ علم معمق بالموضوع للتوصل إلى المعنى الكامل أو على الأقل المعنى المنطقي الذي أراد الكاتب قوله من جهة، ومن جهة أخرى وبسبب أوضاع الأباضيين ومذهبهم القائم على اختيار الأحسن من كل شيء، فقد كان محكوما عليهم بالتخبّط بين المذاهب الأربعة الأخرى بحيث لم يستطيعوا الخروج بأحكام أو آراء جديدة –أصلية– إلا نادرا وذلك حسب ما تقتضيه الحاجة أو المصالح اليومية"[2]. ونحن من هذا إن أردنا استنباط فائدة ما فتلك التي يمكننا استنتاجها هي أنه وبسبب حداثة المذهب ربما وحداثة قواعده وربما لرغبة في التفرد وتجنب التقليد خرج المؤَلّفُ على هذه الشاكلة دون أن يفلح في ذلك بصورة كاملة، فقد ذكر الكاتب هنا تخبط المذهب الحديث بين الأربعة الأخرى في الآراء وهذا لسبقهم في الإحاطة بجميع القضايا ولم تكن الأحكام الجديدة سوى نتيجة لما جَدَّ في الحياة العامة آنذاك .

وكأثر حتمي لجميع هذه الأسباب، غالبا ما جمع كتاب النيل أحكاما متناقضة لنفس القضايا وهذا راجع ربما لفتوة علم الكاتب أو حتى طريقته في جمع الأدلة وإثباتها في قضية ما وهذا ما نلحظه حين قال السيد زيس "يُدلى في النيل بالآراء دون اختيار فعلي والتي غالبا ما تكون متناقضة، وحتى دون تبيان علل التفضيل أو حججه الأمر الذي قد يحول دون توجيه القارئ أو حتى إقناعه"[3]

وبما أن التشريعات الأباضية وبالتالي الميزابية قائمة بصورة أساسية على استنباطات مشائخها وعلمائها لتفسيراتهم وتحليلاتهم لكتاب النيل فهي بالتالي خاضعة لرؤاهم وقناعاتهم الأمر الذي جعل منها محل اختلاف بينهم وهذا ما يؤكده زيس في قوله "هذا الأمر لوحده، يؤكد أن القانون المدني الميزابي ما هو إلا نتاج ما يراه ويقول به رجال الدين خاصتهم"[4]

[1]– حاشية كتاب التشريعات الميزابية للسيد زيس ص46-47.

[2] - Ibid, pp 47.
[3] - Ibid, pp 48.
[4] - Ibid, pp 49.

ثم في الفصل الثامن وهو الأخير من الكتاب يقدم السيد زيس ملخصا شاملا عن الأباضية نلحظه مختصرا في مقدمة الفصل ليتوسع فيه أثنائه، يقول في المقدمة أن "يمكننا القول بأن الأباضية ليست مذهبا أصليا. ففي نشأتها خصوصا لم تكن سوى شكلا من الاعتراض، اختلافا قائما على قضية سياسية"[1]. ثم يستطرد حديثه عن نشأتها وتطورها عير فتراتها المختلفة إلى حين استقرارها في صحراء إفريقيا فيقول "وخلال فترة تقارب أيامنا هذه، عندما جابت الأباضية ربوع الجنوب، في ورقلة، ظل مذهبهم ثابتا هذا إذ لم يتقهقر بعض الشيء. وخلال القرن الحادي عشر، وعندما وجدوا في الشبكة ملجأ آمنا واعتقدوه دائماً، منه انطلقوا في التطوير"[2] وهنا يقول السيد زيس بالمراحل التاريخية بما حملته من صعوبات عسكرية ومادية وحتى إقليمية واجهوها حتى استطاعوا الاستقرار أخيرا.

وقبل أن يختم حديثه عن الأباضية عموما وعن ميزاب تحديدا، ذكر الأهداف التي ترجو الحكومة الفرنسية الوصول إليها من خلال دراسة تاريخ الأباضية والسبب الكامن وراء الاهتمام بها فيذكر "وكما هو الحال دوما، فأينما تحل فرنسا تحمل معها الحضارة والتطور وهذا يشمل هذا الإقليم الصغير المنغلق على نفسه من جميع التأثيرات الخارجية، لأنه، وكما تسائلت دوما، أي حضارة يمكن للميزابي تحقيقها في أرضه من خلال جولاته في المدن الجزائرية المحيطة بخصومه الدينيين المتربصين؟ لكنه تحت مظلة الحماية الفرنسية، ظل الوضع على ما هو عليه لأنه بحكم المعاهدة ذاتها المنعقدة سنة 1853(**أنظر الملحق رقم 03**). حتى سنة 1882 أين استطاع الميزابيون تحت إذن من الحكومة الفرنسية العيش بسلام لوحدهم، غير مندمجين لا مع المسلمين ولا مع الأوروبيين"[3].

من خلال هذا التصريح، نستطيع استخلاص سبب اهتمام الحكومة الفرنسية عبر رحلات علمائها ومستكشفيها بما فيهم السيد زيس وذلك في محاولة منها لفهم طبيعة الأراضي التي ستحتلها ذلك أنها تعتمد في هذا مبدأ كل من (فهم السؤال نصف الجواب) ومبدأ (فرق تسد) وهذا ما كان متضمنا في مقولته غير مندمجين.

ثم يذكر السيد زيس الطرق الملتوية والسبل المفخخة التي تنتهجها الدولة الفرنسية للتغلغل داخل مفاصل الدولة الجزائرية عامة وداخل ميزاب خاصة ومحاولة السيطرة عليه وذلك عن طريق سياسة الترغيب من جهة والترهيب من أخرى. فكما ذكر في سابق حديثه عن كون بني ميزاب تجارا يسعون

[1] - Ibid, pp 50.
[2] - Ibid, pp 51.
[3] - Ibid, pp 53.

بالدرجة الأولى للحفاظ على مصالحهم لذلك فالإغراء هنا سيثمر واستدل على ذلك إذ قال "لقد منحناهم طرقا، آبارا، خطوطا هاتفية، وسيكونون بهذا عاجلا أم آجلا أداة قوية وسيقدّرون هذه المميزات لأنهم أذكياء. سنؤمّن لهم الحماية التي هم بحاجتها لكونهم تجارا يحتاجونها"[1] وهنا اعتراف ضمني بترهيب خفي وابتزازا براغماتي من الحكومة الفرنسية للدولة الأباضية.

في ختام هذا الفصل، والذي من خلاله تطرقنا إلى منطقة وادي ميزاب والميزاب من منظور استشراقي بعيون كل من جوزيف دوماس، بول سولاييه والسيد زيس من خلال كتاباتهم لعد زيارتهم للمنطقة واحتكاكهم بأهاليها ومنه يمكننا تلخيص واستخلاص مايلي:

- اهتمام المستشرقين بدراسة مختلف بقاع العالم غالبا ما يكون له هدفان أساسيان أولهما علمي استكشافي ذو نزعة شخصية والآخر حكومي استعماري يسعى من خلاله المستعمر لفرض سيطرته على المنطقة والتحكم فيها من خلال معرفتها معرفة دقيقة.
- منطقة وادي ميزاب من بين المناطق التي لحقها المد الاستكشافي-الاستعماري وبما أنه قد غلب على تاريخها الغموض بسبب ندرة المصادر من جهة ومصداقية جميع ما كُتب من جهة أخرى.
- المجتمع الميزابي مجتمع متفرد من جميع النواحي سواء من الجاني الديني، السياسي، التاريخي، العمراني وحتى الاجتماعي.

في الأخير، ساهمت كتابات المستشرقين عن ميزاب في رفع بعض الغموض والمساهمة في إثراء التاريخ الأباضي الميزابي وتوثيقه الأمر الذي يجعل من هذا العمل إضافة متواضعة لجميع ما سبق.

[1] - Ibid, pp 54.

الفصل الثالث: ميزاب في كتابات الأجانب

المبحث الأول: غرداية من خلال عيون إيميل ماسكوراي

المبحث الثاني: ميزاب بقلم غوستاف موتيلانسكي

المبحث الثالث: منطقة ميزاب من خلال مقالات جوزيف هيغوت

الفصل الثالث:منطقة ميزاب في كتابات الأجانب:

في هذا الفصل أيضا سنتطرق إلى منطقة وادي ميزاب من خلال عيون المستكشفين الأجانب ومنظورهم لها غير أننا هذه المرة قمنا باختيار مجموعة أخرى من العلماء والذين حسب سيرهم الذاتية يُشهد لهم بالصيت الذائع والعلم الغزير والاهتمام الوافر بدراسة منطقة وادي ميزاب كونهم متخصصون في مجالات علومهم. الذين اخترنا لدراسة تاريخ منطقة وادي ميزاب من خلال نظرتهم هم كل من غوستاف موتيلانسكي، إيميل ماسكوراي وهيغوت.

المبحث الأول: غرداية من خلال عيون إيميل ماسكوراي:

أولا: التعريف بشخصية إيميل ماسكوراي[1]:

ولد في 20 مارس سنة 1843 ب-روان- شمالي فرنسا، كبر فيها ودرس فيثانويتها وبعدها في جامعة سانت-بارب في الحي الخامس في باريس واشتغل أثنائها سكرتيراً للفيلسوف الفرنسي فيكتور كوزان. تخرّج من كلية المعلمين العليا سنة 1866 وحصل على اعتماديته في التاريخ والجغرافيا فيها ثم في سنة 1869 عُين مدرساً في مدينة باستيا بجزيرة قورسقة.

عين مدرسا في ثانوية الجزائر بعد قضاء فترة خدمته العسكرية فيها ما بين عامي 1870 و1871 ومنها انطلق في دراساته الاجتماعية لبربر القبائل تحديدا من سنة 1873 واستتفتح تاريخ رحلاته بالأوراس التي أقام بين جبالها عامين كاملين، ثم شهرين كاملين في إقليم ميزاب أين قام خلال تلك الفترة بنسخ كتاب تاريخ أبي زكريا.

عُهِد إليه مسؤولية تنظيم التعليم العالي سنة 1880 فأسّس مدرسة الآداب في الجزائر التي وبأمر منه أصبحت تصدر (مضبطة المراسلات الإفريقية) وشرع بعدها في إعداد رسالتي الدكتوراه التين نوقشتا سنة 1886 بحيث تناولت الصغرى موضوع منطقة جبال الأوراس من بداية القرن الثاني ميلادي حتى حملة سليمان البيزنطي أما الكبرى فتناولت دراسة أثنوغرافية اجتماعية عن النظم الاجتماعية في منطقة القبائل، جبال الأوراس وإقليم ميزاب.

توفي ماسكوراي يوم 19 أغسطس 1894 بمقاطعة نورمنديا بمسقط رأسه عن عمر ناهز الواحد والخمسين سنة إثر نوبة قلبية مفاجئة خلّف من بعده زادا علميا غزيرا من أهمه تحقيق (تاريخ أبي زكريا) سنة 1878، وتصنيف كتاب بعنوان (تكوين المدن عند السكان المقيمين في الجزائر)، بحثا تحت عنوان (أولاد داوود المقيمين في جبل الأوراس) سنة 1879 أيضا صنف قاموسا فرنسيا طوارقيًّا بحسب لهجة يتتوغق نشر على هيئة كراسات في الفترة الممتدة ما بين 1893 و 1895 في كل من الجزائر وباريس

[1] – عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق ، ص549.

بالإضافة لمجلد جمع فيه مقالات ذات طابع أدبي تحت عنوان (ذكريات ومشاهدات إفريقية) سنة 1893.[1]

ثانيا: كتاب تاريخ أبو زكريا – ترجمة وتحقيق: إيميل ماسكوراي:

يعتبر الكتاب فاتحة لسلسة من الكتب التي تهتم بدراسة تاريخ بني ميزاب ترجمها وحققها السيد ماسكوراي بعد زيارته لمنطقة ميزاب وحصوله عليها بغض النظر عن طريقته في ذلك[2]. ولم تكن هذه مهمة سهلة لأنه وفي اعترافه الصريح في مقدمة الكتاب قال أن "الميزابيون هم أكثر الناس تحفّظا في العالم. ماضيهم وحاضرهم ومجموع قوانينهم بأكملها محفوظة في المخطوطات القديمة والتي بدورها هي تحت سيطرة العزابة الذين كانوا يخشوننا أو يكرهوننا ربما لأنني حين دخلت مسجدهم في غرداية كان الأمر أشبه بدخول عثماني إلى الكنيسة في العصر الوسيط"[3].

واجه الكاتب صعوبات كبيرة في الحصول على الوثائق المتعلقة بالتاريخ الإباضي بعد رفض العزابة تسليمه إياها الأمر الذي واجهه في غرداية "أنت عارف بقوانيننا بقدر معرفتنا بها، لأنها مستنبطة من القرآن، والقرآن موجود بين يديك" وفي بني يزقن قيل له "إن كتب تاريخنا هي ملكيتنا الشخصية التي تخصنا لوحدنا"

يستفيض الكاتب ماسكوراي في سرد تاريخ ظهور الإباضية غير أنه يتعمق في ذلك ويتجه إلى التفصيل في سرد الأحداث التاريخية المتعلقة بالدين الإسلامي والمعتقدات الخاصة بكل من اعتنقوه بعد ذلك. فيذكر الخلفاء الراشدين وما حدث معهم ويفصل فيما حدث بين معاوية وعلي اختلافاً على الخلافة ومن هنا خروج المعارضين لعلي المؤيدين لمعاوية وبالتالي ظهور تسمية "الخوارج". يسترسل

[1] – عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق، ص459.

[2] – وهي ما فصله في مقدمة كتاب تاريخ أبو زكريا الذي قام بترجمته وتحقيقه.

[3] - Emile MASQUERAY, Chronique d'Abou Zakaria, Imprimerie de l'association ouvrière V. AILLAUD et C, Alger, 1879, pp. VIII. (Pdf)

ماسكوراي في السرد بمساعدة الشيخ آطفيش فيأتي على ذكر انقسام الخوارج لطائفتين: الوهبية–الإباضية والوهبية–الصفارية الأولى نسبة لعبدالله بن إباض والثانية لعبدالله بن صفار.

ويقول حسبه أن التسمية "ميزاب" أتت من مصب الماء (الميزاب) الموجود في الكعبة أثناء حج أبو بلال غير أنه يناقضها ويقول أنها غير مؤكدة إذ يقول "من المجزوم أن البلد الصحراوي الصغير الذي لجأ إليه الإباضية بعد فرارهم من تيارت ورقلة واستقروا في ضيافة بني مُزاب الوسيليين الذين يختلفون تماما عن الإباضية لهذا فإنه من المرجّح جدا أن تسمية بني ميزاب متأصلة من بني مُزاب"[1]

هذا والكثير غيره مما لا يتسع المقام لوصفه، ذكره السيد ماسكوراي في مقدمته المتضمنة في كتاب سجلات أبو زكريا الذي ترجمه وحققه ونشره بتاريخ 7 نوفمبر 1878 بآغا–مصطفى، الجزائر العاصمة.

ثم نجد متن الكتاب أي ما كتبه أبو زكريا بنفسه مع حواش وتهميشات لتحقيقات السيد ماسكوراي فنجد عديد العناوين أولها:

- **فضائل العرب على العجم**: وتحدث فيه عن تكريم العرب بميلاد النبي ﷺ.
- **فضل الأعراب على الحضر**: وذكر فيه وقائع عن تكريم الأعراب على المقيمين بالمدينة.
- **سيرة عبد الرحمن بن رستم بن برهام بن كسرى حاكم الروم**: وتحدّث فيه عن عبد الرحمن بن رستم وبعض من حياته
- **إمامة عبد الخُطّاب عبد العلى بن السّماح**: وكيف تم انتخابه –اختياره– خليفة.
- **وفاة عبد الخطّاب وأصحابه.**
- **خلافة أبو حاتم.**
- **وفاة أبو حاتم وأصحابه.**
- **إمامة عبد الرحمن بن رستم**: يذكر هنا أبو زكريا قائلا "يروي العديد من الأصحاب أن عبد الرحمن بن رستم حكم تيهرت منذ سنة 160هـ ويروي آخرون أنها منذ بداية 163هـ

[1] - Ibid, pp, XXXVI.

والله أعلم أيهما أصحّ"[1] ويعلق عليها ماسكوراي من كتاب اين خلدون محققا بقوله "بعد وفاة عبد الخُطّاب، أخلى عبد الرحمن بن رستم هو وأهله وعشيرته القيروان واتجهوا صوب أعراب إباضية المغرب الأوسط...وتيهرت، التي وضع عبد الرحمن بن رستم دعائمها سنة 144هـ/761-762م ازدهرت كثيراً أثناء فترة حكمه" وبهذا إذن فنحن الآن نعلم أن أول الحكّام للطائفة الإباضية في تيارت كان عبد الرحمن بن رستم والتي خلفه فيها بعد وفاته عبد الوهاب.

- **أول افتراق بين صفوف الإباضية:** وهنا يقصد الانقسام الذي حصل بين الإباضيين والحميريين نسبة إلى عبد الله بن حُمَيْرٍ. وتحدث ماسكوراي في الحاشية عن الانقسامات التي حدثت بين إباضيي وادي ميزاب وأعطى مثلا بين الإباضيين الشراقة والغرابة في القرارة.
- **أسباب أول فُرقة بين صفوف الإباضية:** وبعد الاطلاع على ما أتى فيه استطعنا تلخيصها كالتالي: غيرة يزيد بن فندين بعد تولي عبد الوهاب الخلافة وتحريضه لمن حوله على الإمام المختار والتي نلخص الأحداث التي أتت نتيجتها بقوله "عرض هذا الأخير – ويقصد أبو خسان مُحَمَّد بن الحموة الخساني– مهام الرسل –أرسلوا إلى أهل مكة، وفاة عبد الرحمن بن رستم، خلاف عبد الوهاب، افتراق بن فندين ونيته في وضع ميثاق[2] مع الإمام"[3] هذا غير أن أهل مكة رفضوا طلبهم في خلع الإمام من منصبه نظرت لانعدام السبب وراء ذلك وأجابوهم بما برسالة مختصرها ما قاله الكاتب "أيّد أهل مكة إمامة عبد الوهاب وألغوا الميثاق وأقرّوا بخطأ جميع من خالف هذا الإجماع، وأكّدوا أن الإمام لا

[1] - Ibid, pp. 49.

[2] – حسب اطلاعنا فقد كان يقصد بالميثاق أن يتنحى الإمام عبد الوهاب عن منصب الخلافة وبولي يزيد بن فندين مكانه ذلك بحجة أنه أولى منه بها كونه من العائلة.

[3] - Ibid, pp. 64.

يسقط إلا واحدة ذريعة واحدة وهي مخالفته لشرع الله..."[1] ومع هذا فقد أصر يزيد بن فندين على مخالفة الإجماع وخرج مخالفا الإمام حتى سُمّي هو وأتباعه بالنجوية بعد إقامتهم بضواحي المدينة للتآمر، ثم بالنُّكّار بعد أن أنكروا إمامة عبد الوهاب وسُمُّوا بالشعبية أيضا كونهم أتبعوا سبيلا ضالا، وأخيرا أُطلق عليهم لقب الكافرين كونهم خالفوا الإمام الذي كان على طريق الحق.

وبهذا فقد حدث العديد من الوقائع التي أراد المعارضون من خلالها قتل الإمام بتحريض من شعيب بن المعروف الذي وبعد فشل جميع تلك المؤامرات التجأ إلى طرابلس بعد انهزام النُّكار واستغل ذلك في التحريض خصوصا من كانوا حجاجا من الناس الأمر الذي انتهى إلى مسامع ربيع بن حبيب[2] والذي بدوره تبرأ[3] من شعيب ويزيد...؛ هنا من وقف قليلا عن سرد التاريخ ونهتم بما ذكره ماسكوراي عن التبرئة التي حسب تعريفه لها بقول بأنها الحكم على مرتكب الخطأ بالنفي وقال "وإني أقصد هنا بذلك مصطلح التبرية —التبرئة– وهو مصطلح يكثر استعماله في نصوص بني ميزاب. التبرئة الميزابية تعني الاستثناء من جميع الأحداث العامة وخاصة صلاة الجماعة ولا يُستثنى منها أحد بداعي المكانة"[4] واستكمل حديثه عن كيفية تلقي العقاب وتبرئة الذمة من الخطيئة المرتكبة وذلك بأن يعرض المخطئ أمام الأئمة ويعترف ثم يقره في ذلك الأئمة ويقررون أي عقاب واجب عليه ثم في الأخير يحلق رأسه إعلانا لبداية جديدة وينخرط في الحياة العامة. وهنا يشير ماسكوراي إلى مظهر من مظاهر القضاء والاحتكام لدى بني ميزاب والذب كما سبق وذكرناه في الفصل الأول علق عليه أيضا بقوله "وهذا المشهد الذي يصف العقاب المقرر كما وصفناه سابقا، تشبه وبطريقة محيّرة مظاهر الاعتراف المسيحية"[5]

[1] - Ibid, pp. 66.

2 – قال ماسكوراي أنه يعتبر أحد أهم أئمة الطائفة الإباضية.

[3] – يقصد بها التبرئة وهما وما فصّل فيه ماسكوراي أعلاه.

[4] - Ibid, pp. 74.

[5] - Ibid, pp. 74.

- **حرب الوسيليين مع الإمام عبد الوهاب:** يقول أبو زكريا أن "هؤلاء الوسيليين كانوا بربرا أغلبهم من الزناتيين. عاشروا الكثير من الطوائف الإباضية..."[1]. أثناء ذكر الكاتب لمعركة حدثت دون تحديد أطرافها ويكتفي بوصفهم بالبربر، يعلق ماسكوراي على ذلك ويسترسل في الحديث فيذكر مظاهر العمران في ميزاب فيقول مفصّلا "كانت قرى البربر في تلك الفترة تشابه قرى القبائل والشاوية، وحتى القرى الصغيرة لبني ميزاب. مبنية في الأعالي، معزولة قدر الإمكان ومتخذة شكلا مخروطيا. في قمتها يتربع المسجد (تامسجيدة)، أو بيت المال العام (القلعة). تحيطها بالأسفل المنازل بحيث الخط الأخير منها يشكل سورا شبه مستمر"[2]. ثم ينتقل فيذكر أحد مظاهر الاحتفالات الشعبية أو الفانتازيا المتعلقة بالحرب سواءا حقيقية أو مجرد محاكاة ويقول في شأن تلك التي تقام لدى بني ميزاب "أخبرني بعض بني ميزاب أنه في أيام الحرب تقوم العجائز بحمل طبق من الحناء وتجبن به صفوف الجنود يعلّمن بخط أحمر ملابس من تولّى من بينهم أو خاف"[3]
- **حصار مدينة طرابلس من طرف الأمام:** وهو حصار أقامه الإمام عبد الوهاب على طرابلس في ليبيا بعدأن كان متجها إلى الحج.
- **فُرقة الإباضية الثانية:** عبد الوهاب، السْمَاح، خَلَفْ الذي كان اختياره السبب الأساسي لهذا الافتراق، وهذا هو الترتيب في الخلافة الذي كان في مدينة طرابلس. وتعليقا على طريقة الاختيار ذكر ماسكوراي بعض التقسيمات القائمة على الأساس الديني لدى الإباضية فقال "يشير التاريخ الإباضي هنا إلى أن أهل الخير، أهل الصلاح هم الأشخاص الذين يتمتعون بسلطة معتبرة. وهذه التسميات هي تسميات دينية بحتة ذلك أنه لدى المجتمع الإباضي، تُمنح هذه الميزات على أساس التقوى والعلم بأمور الدين لا على أساس النسب أو المال. باقي الناس يُطلق عليهم لقب العامة، اليوم في وادي ميزاب، تفرعت

[1] - Ibid, pp. 81.
[2] - Ibid, pp. 116.
[3] - Ibid, pp. 117.

التقسيمات أكثر، فأهل الخير يشكلون فرقة تسمى غالبا بالطُلبة والتي بدورها تنقسم إلى العزابة، إيروان وإيمسوردا؛ وهم الأئمة ولديهم دستورهم الخاص، عددهم المحدود، قوانينهم المحددة وبعض الأزياء المميزة. أما الباقي من الناس فيسمون بالعامة أو العوام"[1]

- **خلافة أبو عبيدة عبد الحميد**
- **ولاية فلاح بن عبد الوهاب.**
- **الفُرقة الثالثة بين الإباضية:** اختار الإمام عبد الوهاب أبو يونس النفوسي إماما على القنطارة، ثم بعد وفاته اختار الأمام أحد أولاده المسمى (سعد) دون الآخر المسمى (نفعت) ومن هنا كانت شرارة الافتراق الثالثة.
- **إمامة مُحَّد بم فلاح:** والتي حكم فيها لمدة أربعين عاما حتى وفاته وخافه فيها ابنه يوسف من بعده.
- **ولاية يوسف بن مُحَّد بن فلاح:** والتي دامت لمدة 14 عاما حكم فيها بعدل ودون أن تحدث أي شاكل أو صراعات.
- **معركة منوة وسقوط الإمامة:** والتي يقول الرواي أنها كانت بين أهل نفوسة والعباسيين. وحسب روايات أصحاب الطائفة، فقد شارك في المعركة 12000 مقاتل من أهل الجبال و4000 من نفوسة و8000 من البربر وكان من ضمنهم 400 عالم دين.
- **عادة متعلقة بعبيد الله[2] ووصوله إلى المغرب، ثم خلفاؤه القاسم وابنه إسماعيل وابنه مهاد، وكذلك دخول مهاد إلى القاهرة وكذا دخول الشيخ أبو خزر، زائداً رواية الصراعات التي خاضها الإباضيون:** حيث كان يعتقد أنه من المقدر له أن يحكم بلدا تسمى "توزر" وعبر أحداث رواها الكاتب مفصلة علم بوجودها وبأنها أرض أهل كُتامة

[1] - Ibid, pp. 130.

[2] – يقول ماسكوراي أنه "المعروف عبيد الله المهدي، ابن مُحَّد الحبيب، الإمام الحادي عشر للطائفة الشيعية الإسماعيلية " تاريخ أبو زكريا، ص 205.

فأرسل إليها أبو محمّد الحِجاني بدعوتهم لاعتناق المذهب الشيعي وهو ما حصل فعلاً. وأثناء رحلته إلى سجلماسة مرّ بوارجيلان أين اعتدى عليه أهلها فعاد إلى سجلماسة وبقي هناك حتى وفاة حاكمها العيسى بن مضرار وبحكم سمعته الطيبة وعلمه الغزير اختاره أهلها حاكماً عليهم ومن هنا أعلم رسوله الحجاني بأن يلحق به ويأتي بأهل كتامة إلى وارجيلان.

- **خروج الحجاني من كتامة وقدومه إلى سجلماسة:** وهنا تم قتله بأمر من أبو عبيد الله لعصيانه إياه وخلفه في الحكم ولده القاسم بن عبيد الله.

تسلح أبو يزيد مخلد بن قداد: وهنا يروي الكاتب بعض الأحداث التاريخية والوقائع التي لا تثري موضوعنا غير أننا نجد أن ماسكوراي علّق على لفظ "عزابة" مرة أخرى حينما ورد وقال: "من الضروري أن أُصر على ذكر مصطلح العزابة مرة أخرى، وخاصة على مصدرها. أشرتُ مسبقا في الصفحة 130[1] إلى العزابة (حزّابة) هم الأئمة الإباضية ذوو الشأن الرفيع في المجتمعات الحالية لوادي ميزاب...ظننت في بادئ الأمر أنها مشتقة من من (حزب) ووجب كتابتها "حزابة" في حين أن السجلات أتت على كتابة "عزابة" ...؛ حزّاب، وهو المكلف بتلاوة الستين حزبا من القرآن...مقابل 20 فرنكا شهريا...وبذلك فهم يدرسونه مجانا. وهي أيضا مهنة الأئمة في وادي ميزاب. وبما أنني اهتمم بهذا المصطلح، فقد أعانني سلمني وسيط ميزابي نسخة مكملة من كتاب "قواعد الطُلبة لأبي عمار عبد الكافي" بعد يومين من توصية السيد هـ.دوفريي الذي رغب بتشرسف عمل ببعض النصائح...والذي أتي في الكتاب: (ماذا يعني مصطلح عزابة؟ أجابهم: هذا المصطلح مشتق من الانعزال، من الاعتكاف، ومن الوحدة، ومن الحياة المتقشفة...أصل العزابة من العزبة...والذي قد يحمل معنى العزوبية."[2] ويذكر في تهميش لاحق قائلا: "لا يمكن لأي أحد أن يكون عضوا من (الحلقة) إذا لم يستوفي الشروط التالية: أولها أن يكون ذا خلق وأدب، ثانيها محركه محبة طلب العلم، ثالثها ألا يكون كثير الارتياد للأسواق ورابعها أن يغسل

[1] - Ibid, pp130.
[2] - Ibid, pp. 235.

جسده بالماء وقلبه بماء أوراق السدر أي أن ينقي جسده من الأدران وقلبه من الأحقاد والغضب..."[1].

ومن هنا نستنتج بعض قواعد الانضمام لحلقة العزابة لدى مجتمع الإباضية في وادي ميزاب.

- **الفُرقة الرابعة بين صفوف الإباضية.**
- **عادة متعلقة بأبي ربيعة سليمان ين زرقون النفوسي.**
- **الفُرقة الخامسة بين صفوف الإباضية، أحداث متعلقة بالسقاق وتشكيل طائفته.**
- **أحداث متعلقة بأبو القاسم يزيد بن مخلد، وأبو خزر إغلى بن زلتاف الوسيانيان[2].**
- **قضية بغاي: ماذا اقتضت وكيف تمت.**
- **أحداث متعلقة بعبد الله مُحَّد بن بكر وتشكيل حلقته الخاصة:** يعلق في هذا الموضع ماسكوراي على طلب الأهالي من أبو عبد الله لتشكيل حلقة فيقول "كل شيخ معروف ملك ولا يزال يملك الحق لدى الإباضية في تشكيل حلقة، ذلك يعني أن يحاط بعدد من الأتباع الذين يكون من بينهم 12 عزابة.يشكل أربعة من هؤلاء ال12 مجلسا خاصا"[3]

يذكر ماسكوراي في التهميش عند ذكر بني مصعب فيقول: "أعتقد أن بني ميزاب الذين ذكرهم ابن خلدون هم بنو مصعب المذكورون هنا؛ أضيف أنه قد وقع بحوزتي وثيقة تاريخية قديمة جدا، يذكر فيها منطقة الشْبْكَة تسمى (جبل بني مصعب). ثم إن علماء الإباضية قد اقترفوا خطأ بربط الاسم بالأحداث الدينية فقط، ولقد اِستُنتِج هذا من منطلق أنهم عوض كتابتهم لمصعب فقد كتبوا ميزاب (Mizab عوض Meç'ab) ولهذا فبني ميزاب تعني حرفيا (أبناء الميزاب) وهذا ربطا للاسم بحادثة سقوط الماء على أبي بلال أثناء طوافه في الحج في مكة.

في هذا الشأن يقول مؤكدا الشيخ مُحَّد أطفيش في وصاياه ما يلي: "خمس مدن صغيرة أو سبعة إذا احتسبنا القرارة وبريان إضافة لكل من مليكة، بونورة، بني يزقن، غرداية والعطف التي تحمل جميعها اسم

[1] - Ibid, pp. 255.

[2] – يقول ماسكوراي "أظن أنه يُقصد بالوسيانيان انها قبيلة واسين"، تابع، ص288.

[3] - Ibid, pp. 313.

بني مُزاب (بالضمة) والذي أعتقد أنه خطأ إذ يجب كتابة بني مِيزاب بكسر الميم وتتلوها ياء...ويصبح معنى بني ميزاب (أهل الميزاب) وهو اسم يُطلَق على جميع الإباضية الوهبية، أهل الدعوة، وحتى أولئك الذين يسكنون عُمَان...ثم يضيف "من بين المدن السبعة التي تحمل اسم بني ميزاب، الخمسة الأقدم منها وهي غرداية، مليكة، العطف، بني يوقن وبونورة هي التي يفترض بها حمل اسم بني مصعب إذ أن أهلها ينتمون إلى أولاد مصعب وأنه م المحتمل أن سلف أولاد مصعب هنا هو مصعب بن سدمان"

ويضيف أخيراً الشيخ أطفيش قوله " ويطلق على بني ميزاب أحيانا اسم أهل آغلان لأنهم قدموا من وغلّانة وهي قرية في حكومة تونس. وبالفعل، فبعضهم قد قدم من هناك"[1].

وهنا، ينتهي تحقيق ماسكوراي في كتاب تاريخ أبي زكريا إذ يقول في نهايته (وهنا تنتهي النسخة، وهي طبعا غير مكتملة، من كتاب تاريخ أبي زكريا والذي تم في مليكة).

من خلال الكتاب الأصلي والذي تناول موضوع نشأة الإباضية وتطورها ومن خلال تحقيق الكاتب إميل ماسكوراي لمخطط هذا الكتاب التاريخي وتعليقاته على ما جاء فيه وتصحيحاته وتوضيحاته توصلنا في نهاية المطاف إلى رؤية مجتمع بني ميزاب عبر عيون ماسكوراي والذي اهتممنا بالتي أمدنا بتلك التي تصف المجتمع الحالي على وجه الخصوص ذلك أننا نهتم في دراستنا بالمجتمع الميزابي الحالي ومميزاته. ومن خلال جميع ما سبق نستطيع القول بأن الطائفة الإباضية على وجه العموم والمجتمع الميزابي على وجه الخصوص مرّوا عبر تاريخهم الطويل بالعديد من المراحل ودخلوا في العديد من التحولات وشاركوا في الكثير من الأحداث التي أنتجت في نهابة المطاف كيانا مستقلا بذاته ومتفردا سواء اجتماعيا أو دينيا، اقتصاديا وحتى تاريخيا وعليه فإن دراسته لهي حتما أمر ضروري ولا بد منه لفهمه فهما صحيحا وهو ما نحاول نحن إنجازه هنا.

[1]- Ibid, pp. 319.

ثالثا: كتاب "تشكيل المدن لدى السكان المستقرين في الجزائر (قبائل جرجرة، شاوية الأوراس، بني ميزاب)"[1]:

في هذا الكتاب يحاول ماسكوراي دراسة كل من تركيبة المدن لدى السكان المستقرين على خلاف أولئك الرّحالة بين ثلاث مجتمعات مميزة وهي القبائل في جرجرة، الشاوية في الأوراس وبني ميزاب في وادي ميزاب؛ وبذلك وكتحصيل نجد بين أيدينا دراسة مقارنة بين هاته المجتمعات التي تبدو في ظاهرها متماثلة غير أنها في الحقيقة متفردة ومتمايزة لكل منها خصائص تميزها عن الأخرى.

وبما أن دراسة قائمة على الاهتمام بمنطقة وادي ميزاب فنحن اهتممنا بالجزء الذي يتحدث فيه الكاتب عن المنطقة ونجده في بداية حديثه عنها يعلق على اختلافها المميز لها عن كل من المدينتين القبائلية والشاوية فيقول "أخشى أننا لم نُشِر كفاية إلى أن مدينة ميزاب ذات درجة ثانية مقارنة بالقبائل والأوراس. فتحليل تراكيب هذه الأخيرة مكننا من ملاحظة أن العنصر المكون لها هو بكل بساطة مجموع الخروبات، أي أن جميع الأفراد الذين أسسوها انفصلوا عن عائلاتهم واجتمعوا في قرى (تادّارت أو ثاكولاث) لكنهم لم يشكلوا بذلك مدنت كبرى. بعبارة أخرى: لا وجود لقوانين أخرى بخلاف تلك التي توجد في التّادارات أو الثاكولاث"[2] فمن خلال قوله هذا نجد أنه يشير بطريقة غير مباشرة إلى غياب الترابط بين مجموع القرى في هاذين المجتمعين ويذكره مباشرة بعدها معلقا على أثره على العمران فيقول "المدينة الميزابية لا تتشكل بصورة مباشرة من مجموع الخروبات أو ما يسمى في المصطلح الميزابي عشاير، بل يوجد بينهما طبقة وسطى تسمى القبيلة...وعلى عكس ما يُقصَد بها في جرجرة مجموعة الأقوام التي تضم عدة مدن، في حين أن القبيلة الميزابية تعني جزءا من المدينة فقط"[3]

[1] - Emile MASQUERAY, Formation des cités chez les populations sédentaires (Kabyles du Djurdjura, Chaouia de l'Aouras, Les Beni Mezab) – Thèse présentée à la faculté des lettres de Paris, Ernest Leroux, Editeur, Paris, 1886.
[2] - Ibid, pp. 174.
[3] - Ibid, pp. 174.

وفي هذا إشارة ضمنية من جهة لصغر حجم المدن في منطقة ميزاب ومن جهة أخرى لتنوع التركيبة السكانية إذ أن كل عشيرة هنا يعني مجموعة العائلات التي تربطها صلة قرابة.

هذه الأخيرة لا تمنع بطريقة ما حدوث الخلافات التي تؤدي يدورها إلى نزاعات سياسية (عشائرية) الأمر الذي علق عليه ماسكوراي إذ قال عنه "لذلك كان من الواجب أن يكون لكل منها ممثل خاص في المجلس الأعلى للمدينة، ولهذا السبب نلاحظ وجود عميدين في غرداية وثلاثة في بن يزقن"[1]

ثم في مقارنة بينها وبين التركيبة السياسية–الاجتماعية في منطقة القبائل نلاحظ اختلافا في المعنى فيما يخص العنصر التأسيسي للمدينة "ما يعتبر تادّارت في القبائل يعد جزءا من المدينة الميزابية فين حين أن المجلس في القبائل يصبح هو المدينة في ميزاب. وبالتالي، فقانون تادّارت، علامة المدينة المميزة في جرجرة، هو القانون الخاص بالمجلس الميزابي. وكنتيجة لهذا، فالمدن الميزابية ذات تعداد صغير مقارنة بالمدن القبائلية. فإذا أردنا تقسيم سكان ميزاب ال25 ألفا كما هو الحال في القبائل لتحصلنا على الأقل على 15 تيدّار في حين أنه يوجد في ميزاب خمسة فقط تشكل مجلسها وهي: بني يزقن، بونورة، مليكة، العطف وغرداية التي تضم لوحدها 12 ألف نسمة"[2].

في الجزء المعنون ب"أوجه التشابه بين الاتحادية الميزابية واتحادية القبائل" يأتي ماسكوراي على ذكر المدن الخمسة فيذكر:

- **غرداية:** مجموع السدود خاصتها المتوضعة في الوادي الرئيسي والتي تنتشر حاليا في جميع ربوع وادي ميزاب؛ تتوزع عبرها الواحات الكبرى تتخللها أشجار الكروم، الضايات المزروعة بأشجار النخيل الكثيرة، المشمش، الخوخ والرمان. وفي أسفل تلك الرحبة، تتربع المدينة الكبيرة جدا نسبيا بتعداد سكاني يقارب 12 ألف نسمة والذي يشكل تقريبا نصف سكان ميزاب بأكملها. أما بن يزقن فتكتفي بمجموع الروافد والتي رغم ذلك، تستقي منها بشكل كافٍ، وتماثلها في هذا

[1] - Ibid, pp. 175.
[2] - Ibid, pp. 177.

بونورة. أما مليكة فسيحكم عليها بالفناء إذا لم تجد مصدرا آخر. الأمر الذي يغذي المنافسة الشرسة، الكراهية، النزاعات ورغبة الانتقام لدى كل من مليكة والعطف اتجاه غرداية.

- **مليكة**:متوضعة فوق سهل تيزرت الصغير تتوسط كلا من غرداية، بونورة وبني يزقن. منازل صغيرة متلاصقة تشكل تلقائيا حصنا منيعا تتوسطه المنارة تعطي المظهر هجوميا أكثر منه قدسيا هادئا. الشعانبة كحلفاء والذين يمتلكون بعضا من الواحات فيها.
- **بني يزقن**: مدينة العلم، بسور حماية ذو تسع دورات، يدخلها العرب صباحا ويغادرون ليلا، يرتدي الميزابيون أقمصة بيضاء وبرانيس بسيطة ويجلسون مقابل محلاتهم ذات السلع المتنوعة: القمح، الجلد، الحديد، الشمع...إلخ. العلماء هنا علاماتهم مميزة: طاقية بيضاء واسعة، عيون مكحلة، يحجون عدة مرات ويطوفون خمسا بحسب المعتقد الإباضي، يزورون إخوانهم من مسقط وزانزيبار، يقدرهم الناس ويوقرونهم وينحنون احتراما عند مرورهم أمامهم.
- **بونورة**: لاتحصل على حصة كافية من الوادي الذي يسيل باتجاه العطف. لذلك فقد خربت إضافة إلى الحرب الأهلية التي قامت بسبب الخلاف بين كل من أولاد مطهر الذين يسكنون الجزء العلوي من المدينة وأولاد عبد الله الذين يسكنون في الجزء السفلي.

الجزء العلوي من المدينة والذي يسمى تافيلالت محصن جيدا، لا يسكنه الأئمة بل يظلون بين غالبية الناس وربما ولهذا السبب وإضافة للتنظيم المحكم للمدينة، هو ما يحافظ على نظافة، هدوء المدينة ودماثة أخلاق أهل بني يزقن. وهؤلاء يحلون خلافاتهم بطرق ودية تستحق التقدير[1].

يعود ماسكوراي إلى ذكر غرداية فيقول أن "غرداية هي (الغنية) بمساحتها الكبيرة، تتربع فوق السهل على شكل مخروطي المشابه للتّادارات القبائلية والتاكولات الأوراسية. صخورها الرمادية ذات الطابع الحزين وصحرائها الواسعة الخالية من الحياة سوى المنازل البيضاء الصغيرة المحاطة في أسفل المدينة بسور الحماية شبه المتهالك يبلغ ثلثي ارتفاع المنازل.

[1] - Ibid, pp. 206.

في قمتها، المسجد بمنارته المربعة التي ينطلق منها الآذان، وفي الأسفل ساحة تملؤها الجِمال في انتظار حمولاتها المتنوعة، يجوبها التجار والمشترون من مختلف الأنحاء وخاصة من جبل عمّور، توات، ورقلة وغيرها...يهود، عبيد وكذلك الميزابيين المتميزون بمظهرهم؛ في جانب السوق يتواجد مصلّى صغير للعرب المالكيين يستغلونه للصلاّة والراحة والنوم أحيانا وبجواره بيت لاستقبال المسافرين وعابري السبيل وبجانبه أيضا منزل صغير آخر من طابقين مخصص لصنع البارود، أما باقي الساحة فعبارة عن محلات لبيع مختلف السلع.[1]

- **العطف**: مظهرها الذي يؤكد أنها أولى مدن ميزاب تأسيسا وأكثرها قدماً، لذلك فقد انتقل العلم منها إلى بني يزقن والثروة منها إلى غرداية. مساحتها الواسعة وهندستها المخروطية، تتواجد بها منارتان علامتان على أكبر قبيلتين سكنتا فيها، من جهة تطل على الوادي ومن الأخرى تنحدر حتى حافته التي يبدو من هنا رمليا أكثر.

تستمد اسمها من انعطاف وادي ميزاب ما بين السهلين الصخريين، "محكوم عليها بالفناء كما سبقتها جميع المدن الإباضية كبيرة أم صغيرة، تيارت، سدراتة، ورقلة. بعد انطلاقها تُهجَر وقبل أن تخبو، تنطوي على نفسها مخلفة جميع خيراتها للمدن التي ستخلف بعدها"[2].

- **القرارة وبريان**: مدينتان حديثتان، لا يضيف تأسيسها تفاصيل كثيرة على المشهد، علاوة على ذلك، هذه المدن الخمس: مليكة، بني يزقن، بونورة، غرداية والعطف تشكل ما يطلق عليه الميزابيون أنفسهم قصور ميزاب[3].
- ثم فيما يخص العلاقات السياسية-العسكرية يذكر ماسكوراي "هذه الحروب الأهلية لم تكن أبدا مقيدة بين مدينتين، فإذا أعلنت مليكة الحرب، تحالفت العطف معها، ووقفت معهما في ذلك القرارة أيضا، أولاد باسماعيل وأولاد عبدالله من بونورة، شعانبة متليلي، والمدابيح الذين هم من

[1] - Ibid, pp. 209.
[2] - Ibid, pp. 210.
[3] - Ibid, pp. 211.

عامة غرداية. في المقابل، تستدعي بني يزقن بريان، أولاد يحي بن كروة من القرارة، أولاد حمو وأولاد صباح من بونورة، بالإضافة لأولاد خالفي، أولاد جمام، أولاد آحريز من العطف.

- مدينة غرداية الكبرى، فضلا على أنها تضم في مجلسها أعيان القبيلتين، أولاد عمّي عيسى وأولاد باسليمان بتعداد متساوٍ، لا تتوافقان دوما رغم أنهما تقطنان نفس المكان حتى في أزمنة السلم. ولسبب أعمق، ففي حالة الحرب العامة، تنقسم إلى طرفين، أولهما يقوده أولاد باسليمان الذي ينضم إلى صف بني يزقن، والآخر يقوده أولاد عمي عيسى والذي يأخذ صف مليكة. هذين الحزبين يسميان بالصّف الشرقي (بني يزقن) والصف الغربي (مليكة)..."[1] هذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على تنوع العلاقات الاجتماعية والسياسية وبالتالي العسكرية ودرجة تعقيدها بين مجموع سكان غرداية بمختلف انتماءاتهم العشائرية والتي تؤثر بصورة أو بأخرى على نوعية الحياة في ميزاب.
- من خلال أهم الأفكار الأساسية لكل من الكتابين الذين ألفهما السيد إميل ماسكوراي والمعنونين ب"تاريخ أبو زكريا – ترجمة وتحقيق: إيميل ماسكوراي" و " تشكيل المدن لدى السكان المستقرين في الجزائر (قبائل جرجرة، شاوية الأوراس، بني ميزاب)" نستطيع رؤية ميزاب من خلال نظرة الوافد المستشرق والذي كانت ملمة بجميع جوانب الحياة في ميزاب ابتداءاً بتاريخها وتاريخ الإباضية كحركة دينية وتاريخ منطقة ميزاب على وجه الخصوص، وكذلك جميع ما يتعلق بالحياة الاجتماعية والطابع العمراني، العادات والتقاليد والعلاقات السياسية إضافة لبعض الممارسات والمعتقدات الدينية

[1] - Ibid, pp. 212.

المبحث الثاني: ميزاب بقلم غوستاف موتيلانسكي:

أولا: التعريف بشخصية موتيلانسكي:

ولد السيد أدولف دي كاتلانسكي موتيلانسكي سنة 1854 في مدينة معسكر بالغرب الجزائري، زاول دراسته الثانوية في الجزائر ومارس فيها مهنة التدريس. في سنة 1887 عين مديرا لمدرسة قسنطينة الشرعية–الفرنسية (الكتانية) ثم بعدها بسنتين في عام 1889 خلف مارتان بعد وفاته في رئاسة حلقة اللغة العربية فجمع بين الترجمة والإدارة . له العديد من الأعمال والإنجازات من بينها أنه اشتغل في عدة أماكن في جميع ربوع الجزائر وفي تونس أيضا بعد اجتيازه لامتحان الترجمة في النطاق العسكري كونه لم يكن من المستشرقين المحترفين.

من أهم رحلاته هي رحلته إلى ميزاب والتي استقر بها لمدة خمس سنوات درس فيها البربرية بمختلف لهجاتها في مختلف ربوع الصحراء وربط بذلك علاقات هامة مع رجال الدين والعلمفيها واهتم على وجه الخصوص بدراسة المذهب الإباضي فجمع وثائقه ودرسه إلى جانب تاريخه وتاريخ المنطقة ككل وعلاقتها بإفريقيا. توفي موتيلانسكي في شهر مارس من سنة 1907 يعد مرضه وإصابته بالتيفوس أثناء ترحاله إلى منطقة الهقار[1].

ثانيا: كتاب "القرارة منذ نشأتها"[2]:

- **تأسيس القرارة:** يعتبر الكتاب ترجمة الكاتب –حسبه– لمذكرة تاريخية ألّفها السي محمّد ين شتيوي بن سليمان من أهل شرفة القرارة ويعلّق عليها بقوله "إنها حتما غير مكتملة، وأحيانا غير دقيقة حتى. رغم ذلك فهي جديرة بأن بأن تتم ترجمتها وتكملتها ببعض الملاحظات، ذلك أن

[1] – أبو القاسم سعدالله، مرجع سابق، ص 45–46.

[2] - A de Calassanti MOTYLINSKI, Guerrara depuis sa fondation, Apolphe JOURDAN, Imprimerie-Libraire de l'Académie, Alger, 1885.

الكاتب علم كيف يستخرج جملة الحوادث الثانوية والأحداث الأساسية ورتبها حسب نسق معيّن يصل بها إلى منشأ الصفوف، شرح أسباب النزاعات المتتالية التي حدثت في القرارة ويفصّل في بضع صفحات الحياة العامرة بالأحداث لهذا القصر"[1]

كتاريخ موجز لتأسيس للقرارة يترجم موتيلانسكي أنه "قبل تأسيس القرارة، كان يوجد قرب موضعها اليوم قصر يسمى بالمبرتخ أسس منذ فترة غير محددة التاريخ. أسسه كل من أولاد نوح من بريان، بعض من أهل بني يزقن، أولاد السايح، سعيد أولاد عمر، الدرايس، بعض من أولاد عطّاش وعرب آخرون من أصول مختلفة الذين يُضم إليهم قليل من أولاد باخة.

أُسست القرارة سنة 1040هـ الموافق ل1631م على يد أولاد باخة الذين كانوا يسكنون من قبل في كل من غرداية ومليكة. قبل قدومهم إلى وادي ميزاب، كل من أولاد باخة وأولاد نوح الذين ينتمون للطائفة الإباضية كانوا يسكنون في الأغواط

بني الأغواط، مالكيون كما هم اليوم طردوا هاتين الطائفتين من بلادهم فاتجه أولاد باخة لغرداية وسكن أولاد بني يزقن"[2] وترجمته هذه حسب الكاتب الأصلي تعطينا نبذة مختصرة عن القرارة ومؤسسيها وتاريخهم إذ يهمش المترجم معلقا على المؤسسيين أولاد باخة أنهم "أولاد بخت بن يعقوب بن مُحَمَّد بن أحمد بن عباد بن موسى بن سليمان بن عبدالله بن هلال بن عبدالله بن عفار بن أحمد بن شريف بن يحي بن أحمد بن إدريس بن عبدالله بن مُحَمَّد بن الحسن بن فاطمة بنت الرسول ﷺ"[3] ولذلك فحسب هذا النسب فأن نسل أولاد باخة ينتهي إلى آل البيت رضوان الله عليهم.

[1] - Ibid, pp. 01.
[2] - Ibid, pp. 02.
[3] - Ibid, pp. 02.

أما في ملاحظته عن تسمية الإباضية فيقول أن "بني ميزاب ينمون للطائفة الإباضية التي تختلف عن المذاهب الأربعة، وعلى خلاف المعتاد، فأنا أقول هنا الأباضية وليس الإباضية. إذ جاء في كتاب الجواهر المنتقاة للشيخ أبو القاسم بن ابراهيم البرّادي الذي عاش خلال القرن التاسع الهجري أن (لقب أهل الحق مستمد من عبدالله بن أباض لذلك فنحن نُسَمَّى أباضية وليس إباضية، بهمزة مفتوحة)...بنو ميزاب في الجزائر هم آخر ممثلي الطائفة الأباضية، تبنتها منذ القرون الهجرية الأولى القبائل البربرية في طرابلس، فزان، جريد التونسية، واد سوف، واد ريغ، ورقلة وجميع الصحراء الجزائرية"[1]

يستمر الكاتب في سرد تاريخ تأسيس أولاد باخة للقرارة بعد أن طردوا من غرداية واتفقوا على جمع ما يكفي من المال بعد امتهان التجارة في التل لإنشاء مدينتهم الخاصة، فيعلق هنا موتيلانسكي على خصلتين يمتاز بهما بنو ميزاب أولاهما التفريق بين أهل البلد والغرباء عنه فيقول "لا يزال بنو ميزاب يفرّقون بين من قد أسس البلد ومن انضم إليه فيما بعد. فيسمى الساكن الأصلي بالأسيل فيما يسمى الوافد بالنزيل بحيث أن لكل منهم مقبرة خاصة به" ثم يعّلق على ثانيهما وهو تخصص بني ميزاب في التجارة فيقول "هذا الحدس التجاري، الذي يعد علامة مميزة لجنسهم، دفع بهؤلاء البربر للبحث خارج مساكنهم عن مراكز لنشاطهم الدؤوب".

أولاد باخة، وبعد اقتراح حمّو طوبال أثناء اجتماعهم واحتفالهم في مكان قرب وادي زقرير يسمى بالعشاش، بإنشاء قصر يخصهم دون العودة إلى غرداية من جديد، وبسبب عددهم القليل استعانوا ببن جلاب من تقرت لبناء مقرهم الجديد. وأثناء أشغال البناء أقام اولاد باخة مخيمهم في منطقة تعرف بكودية العقارب.

[1] - Ibid, pp. 02.

بعد أشغال البناء التي استمرت 40 يوما أقاموا مدينتهم الجديدة التي أطلقوا عليها اسم القرارة[1] وأحاطوها بسور الحماية ثم حفروا بجانبها بئرا تعرف اليوم ببن عيلف وأصلوها بالمدينة عبر ممر محمي.

بعد خلاف قام بين سكان قصر المبرتخ وأولاد باخة حول إنشاء القرارة على أرضهم وقرب نشوب الحرب، لولا تدخل أولاد سيدي عبدالله من الصحراء تجنبا للصيف بالإقامة في واحات المبرتخ، أقيمت بفضلهم هدنة مدتها 03 سنوات.

كان أولاد سيدي عبدالله طائفة ذات قوة قدرت ل300 خيال، ربطتها بجميع الزوايا في الصحراء وكانوا أيضا حلفاء لأولاد باخة فضمنوا لهم الحماية.

سكن الشرفة في بادئ الأمر بلدة فاس حتى هربوا منها بعد هجوم شنه يهودي مقتدر يسمى بوعافية وقتل كثيرا منهم فخرجوا من فاس وعاشوا حياة الترحال في الصحراء حتى استقروا أخيرا بين واد زقرير خلال الصيف وواد النسا خلال الخريف.

تنقسم فرقة الشرفة إلى 03 طوائف تنحدر من أصول مشتركة وهي: أولاد عيسى، أولاد ابراهيم وأولاد اسماعيل، يقول ماسكوراي أنهم حوالي 13 عائلة. استقروا هناك ثم هاجر بعض منهم وأسسوا مدينة العطف[2].

وفيما يخص تأسيس العطف، بفصل ماسكوراي بأن "قصر العطف يقع على الضفة اليمنى من وادي ميزاب، على بعد 05 كلم أسفل بونورة و08 أخرى من غرداية. حسب ما يروى فقد أسس قائد معتزلي يعرف باسم سليمان بن عبد الجبار بعض القصور الصغيرة بقرب العطف بجانب السد الحالي. ويعرف القصر الذي أسسه باسمه البربري آغرم (إنلالازاديت) أو الاسم العربي (قصر سوفة)"[3].

[1] – يذكر المترجم أن "العرب يطلقون لفظ القرارة على كل منطقة منخفضة وواسعة من الأرض تجتمع فيها مياه الأمطار، وهي مرادف للفظ الضاية"

[2] - ibid, pp 12.

[3] - Ibid, pp. 13.

بعد أن غادر الشرفة سكناهم بعد حادثة مقتل ابن الشريف بعد هجوم من صقور رجال من قبيلة الاربعاء (أولاد غياث وزنقوح الأعور) واستقروا في نفتة، بقي بعض منهم في العطف، وآخرون انضموا إلى أولاد عبدالله الذين وبقيادة سيدي عبدالله العارف قاموا معا بتأسيس القرارة.

"عبدالله كان له ولد، عمر الذي خلف سليمان، هذا الأخير ولد له شتيوي الذي خلف سليمان، والد شتيوي الذي لازال على قيد الحياة. وأنا، الراوي الحالي، مُحَّد، بن شتيوي بن سليمان بن عمر بن عبدالله بن احمد العارف، الساكن بالقرارة.

أولاد باخة إذن، جاءوا فوجدوا عبدالله بن احمد العارف وانضموا إليه وأسسوا هذه المدينة الجديدة"[1]

يقول الكاتب أن عبدالله بن احمد العارف رفض الأمر في البداية ثم قبل بعد إصرار أولاد باخة عليه فتقاسموا بينهم أن منحوه مقابل ذلك ستة له مقابل أربعين لهم في كل من القصر والواحة تحت شروط تمثلت في ألّا يحاول أولاد باخة دعوته ونسله إلى اعتناق المذهب الإباضي، أن يتعاملوا فيما بينهم بالعدل وألا يقرروا في شأن مهم دون حضوره ومشورته. في المقابل، اشترط أولاد باخة ألّا يتحالف أولاد سيدي عبدالله مع أعداء الخارج، ألّا يدعو أتباعهم إلى المذهب المالكي وأن يطيعوهم فيما هو نافع لهم لا فينا يجلب الفوضى والضرر وتم توثيق هذه المعاهدة بعقد مكتوب والذي من خلاله استنتجنا تاريخ تأسيس القرارة والموافق ل1400هـ.

وإذن فإن أولاد عبدالله وأعيان اثنان من عائلة المغازي إلى جانب أولاد باخة أسسوا القرارة.

عائلة المغازي حسب موتيلانسكي "سكنوا في الجزء السفلي من واد زقرير وواد النسا قبل وقت طويل من تأسيس القرارة. غادروا المنطقة بصورة نهائية في النصف الثاني من القرن السابع عشر واتجهوا صوب واد مزي على بعد 09 كلم من أسفل الأغواط وأسسوا قصر العسافية. من المحتمل أنهم هم من

[1] - Ibid, pp. 15.

أسسوا وسكنوا القصر الأحمر إلى جانب أولاد السايح والزناخرة الذي لا توال معالمه باقية غرب القرارة والذين ظنهم بعض الرحالة آثارا رومانية"[1]

- **صراعات أولاد باخة وأهل المبرتخ:** يعلق ماسكوراي على رواية الكاتب حول قصة تأسيس القرارة أنها منقوصة ومغلوطة في بعض المواضع ويتساءل عن كيف أمكن أولاد باخة تأسيس مدينتهم الجديدة في مكان مأهول بالفعل في حين أمكنهم اختيار أي موضع آخر! وهنا يقوم بسرد بعض التفاصيل التي تبين أن أولاد باخة قد سكنوا في قصر المبرتخ مسبقا وهنا فهم قد عادوا إليه فقط.

هاته التفاصيل المكملة ملخصها أنه في نهاية القرن السادس عشر، أولاد باخة، العفافرة، أولاد نوح بعد أن طُردوا من غرداية بسبب نزاعاتهم مع بعض طوائفها الأخرى، إلتجأوا إلى الأغواط واحتموا فيها لخمس سنوات أو ست، ولم يحتمل أهل الأغواط أيضا نزاعاتهم فطلبوا منهم المغادرة فاتجهوا جنوبا أين لحق بهم بنوا الأغواط وقتلوا منهم من استطاعوا في منطقة بوتركفين.

وصل أولاد باخة المطرودون إلى واد النساء ونزلوا حتى واد كبش واستقروا فيه وبنوا فيه منزلين صغيرين أو ثلاث وحفروا إلى جانبهما بئرا غير أن محاولة الاستقرار هنا فشلت. وعلى إثر مخاوفهم من ملاحقات الجيش الذي يجوب الصحراء حينها، غادروا المنطقة المسماة ملاقة بن سيدهم وانتقلوا إلى واد زقرير. حطوا رحالهم في الضاية التي تتواجد بها القرارة اليوم وبنوا بها قصر المبرتخ. وبفضل الفيضانات التي يحضنها واد زقرير ضمنت الاستقرار وأسباب الحياة.[2]

كانت نواة هذا القصر عبارة عن العفافرة، أولاد نوح، أولاد باخة إضافة لبعض المنفيين من بني يزقن. فيما كان عرب أولاد السايح، سعيد أولاد عمر، السالمية، العبادلية، أولاد مولات يرتادون المنطقة وساهموا في تحصينها وازدهارها. وكما هو حال جميع المراكز المنشأة في المناطق الصحراوية، غالبا ما يكون

[1] - Ibid, pp. 16.
[2] - Ibid, pp28.

بها صراع بين طرفين يحاول كل منهما فرض السيطرة، لم يكن قصر المبرتخ استثناءا فقد تشكل فيه طرفان: من جهة كل من العفافرة، أولاد نوح وأهالي بني يزقن، ومن جهة أخرى أولاد باخة. وبعد سلسلة من النزعات هزم فيها أولاد باخة وطردوا من المبرتخ ولجأوا إلى غرداية أين هاجر 40 منهم إلى العاصمة ثم حين عودتهم اتجهوا مجددا نحو المبرتخ ولم يفكروا في إنشاء بلدتهم الخاصة إلا بعد استحالة التفاوض والرفض القاطع لسكان المبرتخ وهنا استعانوا ببن جلاب في مهمتهم.

"من المهم إضافة ذكر أن المبرتخ لم يكن سوى قصرا قليل الشأن ولم يقم سوى لمدة قصيرة من الزمن. تأسس في أواخر القرن السادس عشر وفني كليا بعد فترة وجيزة من تأسيس القرارة. لذلك فأمد قيامه يقدر ما بين 45 إلى 50 سنة فقط يحددها علماء القرارة ب46 سنة تفصل ما بين تأسيسه وسقوطه.

- **نظام الحكم**:يعود الكاتب إلى ذلك المجلس التحكيمي في القرارة الخاص بالطائفة الإباضية فيقول عنه "المسؤولون عن الحكم وتسيير شؤون المدينة يبلغ عددهم ب36 عضوا. 12 طُلبة يسمّون عزابة، حافظون للقرآن، مسؤولون عن المسجد ويسيرون أموره. يعلّمون الأطفال ويدرسون الكبار العلوم، يعاقبون المخالفين، يحمون المستضعفين والنساء والأيتام، يرجعون المظالم إلى أهلها، يقرّون الزواج، يقيمون الحدود ويقررون القوانين، يحددون حدود المنازل وملكيات الأراضي والحدائق، ويسيّرون شؤون الصدقات المتبرع بها"[1]

وهنا تفصيل لدور العزابة في المجتمع الإباضي في القرارة الذي فضلا عن كونه دينيا فهو يتعدى ذلك ليصبح فيما بعد سياسيا ويصبح هؤلاء العزابة هم الممثلون السياسيون للبلدة.

[1] - Ibid, pp. 29.

وفي ملاحظة يذكرها ماسكوراي عن التبرعات يقول أنها "تلك الصدقات مصدرها الحبوس، تستفيد منها المساجد وتستعمل في القيام على شؤونها، المساهمة في إطعام العزابة والطُلبة الآخرين. من الواجب ذكر أن الحبوس لا تزال تحتفظ بميزتها الأولى وهي كونها دينية حصراً"[1]

"12 عضوا آخر يشكلون جماعة العوام، يسيرون أمور المدينة الداخلية والخارجية، لكنهم لا يشاركون في الفتاوى التي هي من اختصاص طلبة المسجد فقط. وعندما يستعصي عليهم أمر ما فهم يلجأون إلى العزابة في المجلس الأعلى للحكم. جماعة العوام، سلطة وسطى، مهمتها تأهيل المدينة وتوسيع الواحات"[2].

وهنا نلاحظ تدرج السلطة، فالعزابة مسؤولون بصفة عامة عن كل شيء وبالأحكام والفتاوى على وجه الخصوص، يأتي تحتهم جماعة العوام المسؤولون عن التسيير و التنظيم ويتلوهم كما يذكر الكاتب 12 عضوا آخرون بحيث "يسمّون المكاريس، مهمتهم حفظ الأمن العام، التنظيم ومعاقبة المخالفين ومسببي الفوضى"[3].

ماسكوراي معلّقا على جماعة المكاريس فيقول عنها "يطلق لقب المكاريس في ميزاب على كل الرجال الذين يحملون السّلاح، هي تنظيم ممتاز، يشكّلون قوة مسلحة مهمتها الحفاظ على المدينة وإقرار النظام والأمن داخلها، غير أن صلاحيتهم محدودة بما تمنحهم إياه الجماعتان السابقتان من امتيازات"[4].

يفصّل الكاتب بعدها في القوانين المطبّقة والعقوبات المقررة سواءا كانت مادية أم معنوية باختلاف درجاتها وأنواعها و"هذه العقوبات تطبق دون تمييز على جميع سكان المدينة حتى أعضاء العزابة، الجماعة أو المكاريس. هذا نظام المدينة، السلطة الموزعة على 36 شخصاً"[5]

[1] - Ibid, pp. 29.
[2] - Ibid, pp. 32.
[3] - Ibid, pp. 33.
[4] - Ibid, pp. 35.
[5] - Ibid, pp. 36.

- **عشائر القرارة:** "ينقسم أولاد باخة إلى 06 عشائر يشارك كل منها بعضوين في كل مجموعة، إثنان للعزابة، آخرين للجماعة واثنين آخرين للمكاريس. هذه العشائر هي:

✓ أولاد حمو بن ابراهيم؛

✓ أولاد بولحية؛

✓ أولاد علاهم، يشكلون الجهة الغربية؛

✓ أولاد مرزوق؛

✓ أولاد كاسي بن ناصر وأولاد جهلان يشكلون الجهة الشرقية؛

تشكل هذه العشائر الست، إلى جانب الشرفة والمغازي مجموعة مؤسسي بلدة القرارة"[1]

[1] - Ibid, pp. 38.

وفي تحديث هذه المعلومات يذكر ماسكوراي تفاصيل سكان القرارة كالتالي:

جدول 01: تعداد السكان الخاص بمدينة القرارة (ماسكوراي)[1].

الرقم	العشيرة	المذهب	العدد (عائلة)	نمط الإقامة
01	أولاد علاهم	إباضي	193	مستقرون
02	أولاد بولحية	إباضي	90	مستقرون
03	أولاد مرزوق	إباضي	28	مستقرون
04	أولاد حمو بن إبراهيم	إباضي	31	مستقرون
05	أولاد جهلان	إباضي	69	مستقرون
06	أولاد كاسي بن ناصر	إباضي	54	مستقرون
07	البالات	إباضي	100	مستقرون
08	أهل مليكة	إباضي	99	مستقرون
09	العرّام (من مختلف قصور ميزاب)	إباضي	50	مستقرون
10	العطاطشة	مالكي	136	مستقرون ورحالة
11	الشرفة	مالكي	33	مستقرون
12	الشعانبة	مالكي	30	رحالة
13	روابح (سعيد أولاد عمر)	مالكي	10	مستقرون ورحالة
14	يهود (عشيرة الباز)	يهودي	05	مستقرون

– **تطور القرارة**:لمدة أربعين سنة آتية، استمر سكان القرارة في تطوير المدينة عبر تحصينها وزراعة مختلف الأشجار والنباتات وأخيرا علامة المدينة المميزة وهي بناء المنارة (المأذنة) والتي تم بناؤها سنة 1670م-1080هـ.

[1] - A. De C. Masqueray, ibid, pp. 37.

عاش في القرارة إلى جانب عشائرها المؤَسِسة لها، حسب رواية الكاتب[1]:

أ- **البالات**: نسبة إلى أبيهم الأول الوافد من ورقلة والمسمى ببالة واستقروا مع أولاد حمو بن ابراهيم.

ب- **الجانات**: ينحدرون من غرداية وتسميتهم مستمدة على قول ماسكوراي من عبارة (خو جانا بمعنى أخٌ جاءنا) ولذلك سموا بالجانة.

ت- **الصياغ**: وهو صناع المجوهرات، أتوا من تافيلالت واستقروا مع عشيرة أولاد علاهم.

عشائر عربية مالكية: والتي تأتي لقضاء فصل الصيف تمثلت في كل من أولاد السايح، سعيد أولاد عمر، سعيد عتبة، أولاد مولات، المخادمة، الشعانبة، المخاليف، الأجناد، أولاد عطاش، الدرايس، الفتايت، أولاد عيسى، أولاد الساسي، الحرازلية، أولاد صالح، المعاصر، المغازي، الرحمانيات، أولاد سيدي عبدالله والشرفة.

بحسب شرح ماسكوراي فالعشائر المالكية تنقسم كالتالي:"أولاد السايح، سعيد أولاد عمر، أولاد مولات، الاجناد، الدرايس، الفتايت، أولاد الساسي والمعاصر هم قبائل من الشرق قادمة من تقرت وبسكرة. أولاد عيسى هم أولاد نايل من بوسعادة والجلفة يجوبون جنوب واد جدي. الحرازلية وأولاد صالح والرحمانيات ينتمون إلى قبيلة الاربعا الكبرى. المخاليف قبيلة من دائرة الأغواط تجوب المنطقة ما بين جبل لزرق وميزاب وغالبا ما تحط رحالها في منطقة الشبكة. المخادمة، سعيد عتبة والشعانبة ينحدرون من دائرة غرداية. أولاد عطاش أو العطاطشة هم مجموعة عرب القرارة، ينقسمون إلى أربع عشائر هم أولاد مبارك، أولاد القندوز، أولاد سي مُحَّد، أولاد سي عيسى وأولاد منداس وتتناوب حياتهم ما بين الاستقرار والترحال بحسب الفصول"[2].

[1] -Ibid, pp42.
[2] - Ibid, pp. 42.

"أولاد سيدي عبدالله والشرفة استقروا في الضاية قبل تأسيس القرارة؛ يقيمون بجوار واحات المبرتخ خلال الصيف والخريف، ويرتحلون خلال الشتاء والربيع.

جميع هذه العشائر متناثرة اليوم ووحدهم أولاد عطاش كما هم معهود يحطون رحالهم بقرب الواحات"[1].

بعد مرور قرن من تأسيسها، ازدهرت القرارة بشكل كبير فأصبحت تضم حسب ما يذكره ماسكوراي: 4000 نسمة، 28728 نخلة، 4308 شجرة مثمرة و1016 بئرا. أما الطابع العمراني لها فتميز بامتداد سكني واسع ذو هندسة منتظمة تضم طرقا وشوارع تمتد من المسجد في القمة أو من ساحة السوق وتنزل حتى الأسفل إلى البوابات الرئيسية التي تشكل مداخل المدينة. سور الحماية يحتوي على خمس فتحات: البوابات الرئيسية الثلاث (باب الشرقي، باب الغربي، باب النوادر)، وبوابتين صغيرتين أخريين تطلان على الواحات (خرجة برج الزوخ من الغرب والخرجة الظهراوية وتشكل مدخلا إلى المقبرة)

- **أولى الصراعات الداخلية. تشكّل الصفوف:** بعد اتفاقية أقامتها عشيرة البالات مع عشيرة أولاد حمو بن إبراهيم، حول شراء ثلاث أمكنة عضوية لمدة سنة كاملة، في مجلس المجموعات الثلاث إذ لا تملك البالات أي عضوية فيما لأولاد حمو بن إبراهيم. قبل الطرفان العرض ومرت السنة ورفض أولاد حمو بن إبراهيم تجديد الاتفاقية الامر الذي حز في نفوس البالات فاحتكموا إلى الحاج سعيد[2]للفصل بينهم فقام رجل يدعى بولقرينات من عشيرة أولاد بولحية بالرد على لسان أولاد حمو بن إبراهيم رافضا تجديد العرض إذ تلقى مقابل ذلك ردا قاسيا فخرج هذا الأخير غضبانا والتجأ إلى عشيرة العطاطشة في الصحراء مقيما لستة أشهر متوعدا الانتقام من الحاج سعيد بالقتل وهو ما حصل الأمر الذي تسبب بنشوب الصراع.

[1] - Ibid, pp. 42.

[2] – أحد أعضاء جماعة المكاريس ينتمي إلى عشيرة أولاد مرزوق.

نتيجة لهذه الحادثة انقسم أهل المدينة إلى قسمين: "من جهة، أولاد مرزوق، أولاد جهلان وأولاد كاسي بن ناصر وشكّلوا الصف الشرقي، ومن جهة أخرى أولاد علاهم، أولاد بولحية، أولاد حمو بن إبراهيم والبالات مشكلين الصف الغربي. ولم يحل السلام بعد النزاعات الطويلة إلا بعد دفع دية الحاج سعيد"[1].

كان السلام مجرد وضع مؤقت إذ لم يرضى الشراقة بحل الدية وأرادوا فاغتالوا رجلا عالما من أهل الغرابة يدعى الحاج سليمان مما أجج نار الصراع القائمة وجعل من الانقسام انقساما دائما قائما حسب وفود العرب التي تقصد أسواق المدينة عند كل عشيرة. وما لبثت شرارة الحرب أن انفجرت بسبب سرقة تمت من منزل الشيخ كاسي على يد عصابة من ثلاث أفراد من الشراقة؛ وابتداءا بهذه الأحداث لم تزل الصراعات والنزاعات تقوم بين الشراقة والغرابة كل مرة ولأسباب مختلفة.

- **نفي الشراقة:** على إثر هذا الأحداث، الدرايس وأولاد سيدي عبدالله انفصلوا عن الشراقة وانضموا إلى الغرابة. وهذه الحادثة أحلّت الضعف أكثر بالشراقة ومكنت الغرابة منهم مما ألجأ الحزب المستضعف إلى الهرب واللجوء إلى بريان التي إضافة إلى بني يزقن كانتا حليفتي الشراقة في حين كانت غرداية، مليكة، العطف ومتليلي حلفاء الصف الغربي.

ومنذ ذلك الحين استمر القتال لأربع وعشرين شهرا أسفر عن مقتل 600 شخص من الطرفين طرد على إثره الشراقة من المدينة وانتشروا في الشمال في كل العاصمة وقسنطينة وحتى خاصة تونس ولم يبقى في ميزاب سوى أولئك الفقراء، وعاد كل من الدرايس وأولاد سيدي عبدالله إلى منطقة الزاب؛ في حين استولى الغرابة على المدينة وممتلكات الشراقة التي تركوها خلفهم ومنحوا العطاطشة جزءا منها، "يقدّر اليوم ب55 منزلا"[2] الذين بدورهم عادوا لحياة الترحال مجددا لل12 سنة مقبلة.

[1] - Ibid, pp. 46.
[2] - Ibid, pp. 51.

- **عودة الشراقة:** بعد فترة معتبرة، وبإشراف المقدّم ناصر بن بوهون تم الاتفاق على إعادة إدماج الشراقة في القرارة ومنحهم ممتلكاتهم مرة أخرى وذلك في حين كان العطاطشة يرتحلون في الصحراء، وذلك ما أثار غضبهم حين عودتهم وإيجادهم أن ما مُنِحوه قد أُخذ منهم وأنه تم اتخاذ قرار بتلك الأهمية دون استشارتهم ما جعل النزاع ينتقل بينهم وبين الغرابة لكنه لم يدم طويلا إذ أقيم الصلح مرة أخرى.
- **تشكل صفين في عشيرة العطاطشة:** حصل الانقسام في عشيرة العطاطشة إلى أولاد سي عيسى وأولاد سي مُحَّد إثر خلاف قام بين بوهون بن ناصر من عشيرة بن علاهم والذي أيّده أولاد سي عيسى وبين عيسى بن باحمد من عشيرة البالات والذي أخذ أولاد سي مُحَّد صفه فانتقل بذبك النزاع إلى عشيرتي أولاد سي عيسى وأولاد سي مُحَّد والذي تسبب فيما بعد بنفيهم خارج القرارة أين استقر أولاد سي عيسى شرقا في واد النسا بينما أولاد سي مُحَّد شمالا في واد زقرير.

بعد مدة وبسبب شح الماء اتجه أولاد سي عيسى إلى حلفائهم في متليلي وهاجموا أولاد سي مُحَّد الذين لجأوا إلى بريان فيما عاد أولاد سي عيسى إلى القرارة بجانب حليفهم بوهون.

- **نفي الشرفة:** ذلك إثر حادثة يروي فيها الكاتب أن السي شتيوي بن سليمان استقبل ضيفا له في منزله بجانب المسجد لمدة من الزمن. وذات ليلة وهما يتلوان القرآن بصوت عال أتاهما العزابة وطلبوا منهم التوقف وبعد رفضهما تم إغلاق منزل السي شتيوي والاعتداء عليه في السوق مما خلق حالة فوضى أودت بنفي الشرفة من القرارة سنة 1263هـ/1848م على إثر مطاردة أولاد علاهم واتجهوا صوب مدينة العالية.
- **عودة الشرفة:** عاد الشرفة إلى القرارة سنة 1276هـ بعد اتفاق البلات وأولاد علاهم على دعوتهم من جديد ودفع 600 ريال تعويضا.[1]

[1] - Ibid, pp58.

- **نفي أولاد علاهم – عودتهم**: باتفاق بين الشرفة والبالات تمت مطاردة جميع أعيان عشيرة أولاد علاهم سوى المقدم ناصر بن بوهون وابنه إبراهيم الذين بقيا هناك وذلك سنة 1267هـ/1851م. على إثر ذلك التجأ أولاد علاهم إلى بريان وأقاموا هناك قاطعين الطريق على جميع الوافدين من القرارة.

اتفق البالات مع أولاد سي عيسى لمساعدتهم في الهجوم على أولاد علاهم الذين كان حليفهم أولاد سي مُحَّد غير أن هؤلاء الأخيرين استغلوا فرصة تواجد أولاد سي عيسى بينهم واتفقوا معهم على الانقلاب على البالات إثر نفيهم إياهم واتفقوا سرا مع كل من اولاد يحي والمخاليف في بريان لذلك. وهو الذي حدث وانقلب الأمر من نفي البالات لأولاد علاهم إلى سيطرة أولاد علاهم واستيلائهم على القرارة من جديد سنة 1269هـ/1851م.

- **مُحَّد بن عبدالله يحاصر القرارة**: التحق أولاد سي مُحَّد رفقة بعض البالات بقائدهم مُحَّد بن عبدالله إلى ورقلة وانضموا إلى المخزن الخاص بها واتبعوا تعليماته.

أثناء غزوة كان مُحَّد بن عبدالله يقوم بها على أولاد نايل، مر بالقرارة وطالب أهلها بإعادة استقبال البالات، وافقوا عليه لكنه بمجرد عودته إلى ورقلة قتل أولاد باخة العائدين من البالات ناقضين عهدهم معه. استشاط مُحَّد بن عبدالله غضبا وأصر على الانتقام وتوجه إلى القرارة منتصف صيف 1269هـ/1852م مع جيشه وحاصرها لمدة 21 يوما مخربا واحاتها وقاطعا لما يزيد عن 2000 نخلة.

لم يزل الحصار قائما حتى رُفِع مقابل 2100 ريال فاتجه بعدها مُحَّد بن عبدالله إلى الأغواط أن لاحقه الجيش الفرنسي لكنه فر منها سنة 1270هـ الموافق ليوم 04 ديسمبر 1852م إلى ورقلة ثم تقرت ثم سوف ثم إلى جريد في نهاية المطاف.

- **القرارة من 1853 إلى 1882**: دخل الكومندان دي براي إلى القرارة سنة 1853 واستلم قيادتها وعين بذلك يحي بن كروية قائدا للصف الغربي وبوبكر بن كاسي ممثلا للصف الشرقي

الذي خلفه كاسي بن الزرويل بعد إقالته سنة 1858 وهذا الأخير اغتيل سنة 1860 وخلف مكانه إبراهيم بن بوهون الذي أُقيل بعد سنة وحدة فقط سنة 1861 وقتل بعض من أتباعه وهدم منزله فقصد الأغواط لعرض وضعيته أمام السلطات الفرنسية واستقر خلال هذه المدة في بريان تارة أخرى في الصحراء فيما استولى البالات وأولاد سي مُحَمَّد على القرارة مجدداً.[1]

سنة 1863، بتحالف مع أحمد بن أحمد من شعانبة برزقة والشلق في متليلي، أغار إبراهيم بن بوهون على القرارة فسيطر على النصف وحاصر الآخر حابسا عنهم المياه، الأمر الذي أفنى كثيرا من الشراقة الذين بدورهم غادروا القصر نحو بريان تجنبا لمذبحة أكبر لكن تم مطاردتهم رغم ذلك وقتل منهم 73 رجلا.

وفي ذات الفترة تم تعيين الحاج قاسم بن حمّو في منصب القاضي بعد أن انتزع الحكم من أيدي الجماعة وأًصبح بين أيدي القضاة.

بالنسبة للصف الغربي، سنة 1861 أقيل يحي بن كروية واستعادت الجماعة سيطرتها وتسييرها. واستُأنِفت الصراعات من جديد وانقسم السكان بين الغرابة الذي يضمون نصف أولاد علاهم، أولاد سي عيسى والشرفة أما الشراقة فيضمون النصف الآخر من أولاد علاهم، البالات وأولاد سي مُحَمَّد. غير أنه في سنة 1863 استعاد يحي بن كروية منصبه من جديد كقائد وتوفي سنة 1874 وخلفه إبراهيم بن بوهون الذي بدوره اغتيل سنة 1877.

ابتداءاً من سنة 1300هـ/1882م سيطرت السلطات الفرنسية على ميزاب فارضة بذلك نظاما فرنسيا أنتج التوقف التام للصراعات والنزاعات بتدخل من فرنسا[2].

[1] - Ibid, pp 60.
[2] - Ibid, pp 66.

في نهاية هذا المبحث، يمكننا تصور شكل كل من الحياة الاجتماعية، السياسية، العسكرية ومظاهر العمران في كل من ميزاب وفي بعض منها على وجه الخصوص –القرارة أنموذجا– من خلال ما رواه وترجمه موتيلانسكي في كتابه والتي اخترنا اثنين منها ونستنتج منهما أن ميزاب في تلك الفترة تميزت بحياة متنوعة من جميع الأصعدة ومتفردة عن غيرها من المجتمع الجزائري انطلاقا من طابعها الديني إلى الاجتماعي الذي يمنحها كيانا خاصا مميزا.

المبحث الثالث: منطقة ميزاب من خلال مقالات جوزيف هيغوت:

أولا: التعريف بشخصية السيد جوزيف هيغوت:

هو طبيب عسكري في صفوف الجيش الفرنسي، قدم إلى ميزاب في مهمة كلفته بها الحكومة الفرنسية سنة 1897 ومكث بها مدة تقدّر بحوالي 19 شهرا والتي عبرها قام بالطواف في كافة قصور ميزاب السبعة.

أعد السيد هيغوت تقريرا مفصّلا حول ظروف المعيشة والوضع الصحي بميزاب ونشره في مقال بدورية سنة 1903 تحت عنوان "الشروط العامة للحياة بميزاب، التطبيب والممارسات الطبية للأهالي"[1]

ثانيا: مقال "ظروف الحياة العامة في ميزاب، الطب والممارسات الطبية للسكان الأصليين":

منطقة ميزاب أصبحت رسميا مقاطعة غرداية العسكرية بموجب معاهدة نوفمبر 1882، عبارة عن منطقة تجمع بين كل من الضايات والشْبكة إذ أن المناخ في ميزاب جاف وحار خلال الصيف وبارد وجاف أيضا خلال الخريف.

تبلغ مساحتها 3775 هكتار وتعداد سكانها 25306 نسمة موزعة كالتالي:

[1] - http://www.atmzab.net موقع آت مزاب، شهادات الأجانب – آت مزاب، 12 جوان 2022، 10:22.

جدول 02: التعداد السكاني في قصور ميزاب حسب إحصاء سنة 1896[1]

	القصر	التعداد السكاني(نسمة)
01	غرداية	8314
02	مليكة	2017
03	بونورة	1010
04	العطف	2346
05	بريان	3040
06	القرارة	3322

- **الحياة، النظافة والصحة في ميزاب**:العادات الغذائية على قدر من البساطة ويتشابه فيها سكان ميزاب سواء عرب أم إباضية وتتمثل في اليخنة صباحا والكسكس ليلا مع تحلية تتمثل في التمر والحليب. يستعمل حليب النوق في ميزاب لعلاج فقر الدم[2]

مظاهر التأثيث المنزلي بسيطة هي الأخرى وتتمثل في أفرشة النوم عبارة عن حصير وغطاء وتزيد لتكون طبقات من (الفراشية) في حال ثراء صاحب البيت. وعادة ما تستعمل مراتب الأسرة من طرف الذين يعيشون في التل والعاصمة لتأثرهم بالثقافة هناك لكنه نادر ولا يتم فعله تجنبا للتعليقات المصاحبة له.

من الأمور اللافتة للانتباه للوافدين الجدد عند دخولهم منطقة ميزاب أمران مهمان: الأول هو النظافة المميزة لشوارع المدينة وساحاتها وأكثر تمثيلا لذلك هي قصر بني يزقن الذي يعتبر في ذات الوقت

[1] - Huguet J. Les conditions générales de la vie au Mzab. La médecine et les pratiques médicales indigènes. In: Bulletins etMémoires de la Société d'anthropologie de Paris, V° Série. Tome 4, 1903. pp. 224.
[2] - Ibid, pp 224.

أكثر قصور ميزاب ثراءا. وثانيهما غياب الحيوانات الضالة كليا وخاصة الكلاب إذ لا يتم السماح بتربيتها إلا في حالات خاصة وتستهلك لحومها عادة كغذاء لتقوية الجسد حسب اعتقاداتهم.

تنتشر أيضا دور الرعاية الصحية في كل جزء من المدينة وحتى في الواحات نظرا لاهتمام السكان بالصحة والنظافة، ويظهر الأمر في اهتمامهم الكبير في هندسة إنشاء وتركيب شبكاتالصرف الصحي بطرق مبهرة يستفيد منها السكان من جهة في الإبقاء على نظافة المدينة ومن جهة أخرى في الواحات إذ تستعمل المخلفات كسماد طبيعي لتحسين جودة الإنتاج الزراعي.

حسب ملاحظات هيغوت، يتمتع سكان ميزاب —ميزابا ويهود- بمتوسط عمر عال إذ يذكر ملاحظته لوجود العديد من المعمرين الذين تتجاوز أعمارهم المائة سنة فمثلا يقول في مقاله "في ذات القصر، استطعت منذ مدة لقاء أحد الطُلبة يتجاوز سنه 97 سنة؛ ومرة أخرى في مليكة، التقيت بمعمّر عمره 114 سنة لا زال يتمتع بصحة جيّدة وبجميع وظائفه الجسدية سليمة"[1].

ومما لاحظه هيغوت حول الوقاية من الأمراض يعلّق "بعيدا عن ممارسات الطهارة المفروضة من قبل الدين، والخاصة بالعرب، مع وضوء أكثر شمولية، ليس لدى الميزابيين أي مفهوم متعلق بالوقاية من الأمراض، فنجد أجيالا منهم تستخدم نفس المفارش والأثاث جيلا بعد جيل، مفارش لمرضى أصيبوا بالسل، لآخرين تم علاجهم فوقها بعد إصابتهم بالحصبة أو الجدري...إلخ...رغم درجات الحرارة العالية، التي تميز منطقة ميزاب خلال الفصل الحار نلاحظ أن السكان الذين تأقلموا مع الوسط بطريقة مبهرة يتمتعون بمقاومة كبيرة للأمراض. فإذا كانت نسبة وفيات الأطفال عالية، والذي هو أمر طبيعي نظرا للممارسات الطبية التي سنذكرها لاحقا، وإذا كانت نسبة وفيات النساء هي الأخرى عالية نظرا للحمل في سن مبكرة وانتشار داء السل بشكل متزايد، وفي المقابل نجد أن نسبة وفيات الرجال أقل بكثير، فأنه وبعكس ما هو عندنا في المناطق المعتدلة، نسبة الحياة هنا ذات معدلات قليلة جدا"[2]

[1] - Ibid, pp 226.
[2] - Ibid, pp 226.

- **العلاجات الطبية لدى الميزابيين:** في تلخيص لمجموع العلاجات التي يستعملها السمان الأصليون الميزاب في علاج مختلف الأمراض نذكر منها:
  - ✓ المسويج (عجينة قشور الجوز المطحون) توضع على الجبين لعلاج آلام الرأس.
  - ✓ الخل في الجبهة لعلاج الشقيقة.
  - ✓ خليط البصل والحناء لعلاج ضربات الشمس.
  - ✓ كي ظهر اليد بين السبابة والإبهام لعلاج الغثيان وآلام البطن.
  - ✓ البارود والملح أو البارود والزيت لعلاج أمراض الجلد.
  - ✓ حليب النساء المرضعات أو عجينة الحناء المخلوطة بنفس الحليب لعلاج آلام العيون.
  - ✓ التكيلة، لعلاج أمراض الجفون وجريان الدموع اللاإرادي.
  - ✓ مزيج من الطين والزفت يوضع فوق قطعة صوف لعلاج آلام الأسنان.
  - ✓ الشيح، الزعتر، بذور الكمون لعلاج أمراض الصدر والجهاز التنفسي.
  - ✓ شراب (عنبة الذيب)، الشاي الأخضر هو من العلاجات المستعملة لأمراض القلب.
  - ✓ الحرمل (عشبة صحروية) لعلاج آلام عظام الحوض.
  - ✓ أما لآلام الظهر والكلى فليجأ بنو ميزاب في حال اشتدادها إلى التمائم (كتاب، حجاب) التي يجهزها الأئمة
  - ✓ حب الملوك مع القهوة لعلاج إلتهابات الكبد.
  - ✓ الفول، الحمص والفول السوداني لعلاج الإسهال وأمراض الجهاز الهضمي، إضافة لمسحوق قشور الرمان المجففة مع البيض النيء.

يذكر السيد هيغوت في مقاله العديد من المواضيع الأخرى والتي نستخلصها في خاتمة المقال كما يلي[1]:

[1] -Ibid, pp260.

"في دراستنا لظروف الحياة العامة، الأمراض المنتشرة والممارسات العلاجية السائدة في ميزاب، نستطيع التوصل إلى النتائج التالية:

- المعلومات حول الحالة الجوية شحيحة وغير معروفة.
- المعطيات المناخية...لا تتوافق مع ما الدراسات المتوفرة هنا وبذلك فإنه سيكون من الأفضل دراسة علم الأمراض وعلاقته بالمنطقة من جديد.
- لم تكن الممارسات العلاجية الخاصة بسكان المنطقة ميزابا ويهودا معروفة أو متوفرة قبل صدور هذه المذكرة.
- تمت دراسة مختلف الأمراض بحسب نسبة تواجدها في القصور المختلفة وتسليم النتائج المتوصل إليها...إلى أكاديمية الطب.
- أخيرا، فيما يتعلق بالطب الشرعي، وضحنا مختلف الممارسات التي لنا ذات أهمية والتي تجب الإحاطة بها عن طريق إجراءات دقيقة وعلمية بحتة بحسب مختلف المذاهب والطوائف المتواجدة في منطقة ميزاب"[1]

- **ثالثا: مقال "بلد ميزاب[2]":**

من خلال هذا المقال، يحاول هيغوت مجددا نقل صورة عن ميزاب واصفا معالمها كسائح متخصص في هذا المجال، إذ ينقل لنا ميزاب بكلمات مقتضبة لكنها دقيقة تصوّر المنطقة يسمح بفهم جغرافيتها وهندستها العمرانية والسكانية فهما علميا وفنيا...

نختصر مقاله حول بلد ميزاب كما يلي:

[1] - Ibid, pp 260.
[2] -Joseph. HUGUET, Le pays du Mzab, Bulletin de la Société Géographie d'Alger, Salle des Marieages de la Mairie d'Alger, 09 Décembre 1898, pp169-180.

التحديد الجغرافي لمنطقة ميزاب يقع ضمن المنطقتين المسميتان الشبكة والضايات. هذه الأخيرة تتخذ شكل هلال يضم في جوفه المنطقة الشمالية لمنطقة ميزاب؛ يحدها على بعد حوالي العشرين كيلومترا من الشمال قصر الأغواط تحديدا واد جدي، من الشرق الخط الوهمي المار بمنطقة الحجيرة أما من الغرب فيحدها واد غربي.

الوافد إلى ميزاب من طريق الأغواط يدخل منطقة الشّبْكة فعليا انطلاقا من ستّافة حتى الهدّارة بمدى 100كلم تقريبا، إذ هي عبارة عن سهل صخري محوره يتخذ اتجاها شمال-غربي جنوب-شرقي وهو كومة من جبال دولوميت صغيرة متداخلة تعطي مظهر الشبكة وهو الاسم الذي تستمد منه اسمها[1].

بعد مسافة من المسير داخل المنطقة، يبدأ الوادي في الاتساع ويسميه أهالي المنطقة هنا واد السودان ويحاذيه الطريق الرئيسي يساراً وانطلاقا من هنا، تبدأ واحات بريان في الظهور شيئا فشيئا تحاوطها أسوار الطوب.

تعلو الواحات بنخيلها المتطاول على المنازل والمأذنة من حولها؛ هذه الأخيرة وحدها من تفوق النخيل علوًّا تماثل في وحدتها منارة وسط البحر. على مسافة منها وعلى امتداد انحدار التلة، تتناثر القبور كتذكير بتفاهة الحياة، يكسر بياض الأضرحة لون الرمال المحيط من كل جانب لتبدو كأنها كنائس صغيرة ودليلا حاضراً على عراقة الإسلام وعلمائه والمنتمين إليه.

في سهل الوادي الرمليبتربع فوق التل برج غرداية ممثلاالسلطة. هذا الصرح يلفت الأنظاربفضل العمران ذي التوزيع المنتظم المطابق لمبادئ هندسة معمارية عسكرية. إلى الشمال الشرقي، يتواجد قصر غرداية مبنية فوق تلتين أكبرهما تتخذ شكلا مخروطيا عامرا بالبناء العمراني المتداخل في جميع الاتجاهات تعلوه المأذنة ذات 19 مترا[2].

[1] - Ibid, pp169.
[2] -Ibid, pp 170.

يسارا نحو الشرق، تتواجد مليكة على حافة جبل صخري، تتميز بانتظام منازلها التي لا تحتوي على نوافذ تطل على الحافة ينتج عنه ظلام أغلب الأحيان، تشكل هذه المنازل سور الحماية ذاته. بواباتها تطل على مدينة خالية من الحياة كمقبرة؛ على عكس غرداية، نحو الخارج باتجاه الجنوب مقابلة للبرج تستقبل النور والنسيم، تتجاور مجموع النوافذ والفتحات والممرات لتمنح المنظر بهاءا وجمالا يلفت الأنظار.

إن الانطباع الذي تمنحه غرداية لزائريها ساحر إذ تتمتع المدينة بجمال استثنائي، توالي النور والظل، السماء الصافية، الألوان المتعددة مما يجعلها أرضا خصبة للفنانين على رأسهم الفنان ديني...؛

كما هو الحال بالنسبة للفنانين، غرداية قبلة خصبة للعلماء أيضا رغم مناخها القاسي، فنجد فيها علماء الجيولوجيا، علماء النباتات، علماء الحشرات وخاصة علماء الآثار وعلماء التاريخ الذين وجدوا فيها مبتغاهم العلمي والضين وعلى سبيل المثال ذكر منهم البروفيسور ماسكوراي سنة 1877، البروفيسور رينيه باسيه سنة 1885، والسيد زيس سنة 1887، خبير المناجم م. شير سنة 1892 وكذلك السيد موتيلينسكي وغيرهم.

"ولأستهل معكم دراستي لبلد ميزاب، سنتطرق إلى دراسة ميادين كل من الجغرافيا، التاريخ، الآثار، وكذلك تاريخ البربر. لا شيء أكثر شغفا أكثر من قراءة الروايات القديمة شرط أن تكون مصادرهم موثوقة. المهمة التي أنا بصدد القيام بها ستمنحها ميزتين إحداهما تسليط الضوء على مناطق لا يزال يغشاها الغموض وينقصها التحديد، والأخرى لإشباع رغبتكم في اكتشاف كل جديد وذلك بعد سماحكم لي في أن أكون أكثر وضوحا"[1].

[1] - Ibid, pp 172.

قصور ميزاب سبعة وهي: العطف الذي أُسّس سنة 1006، بونورة سنة 1046، غرداية الذي تأسس سنة 1048، مليكة سنة 1195، بني يزقن سنة 1347، وفي أقصى الشمال على مسافة 82 كلم يوجد قصر القرارة الذي أسس سنة 1626 ثم على بُعد 48 كلم باتجاه الأغواط بريان الذي تأسّس سنة 1668. هذه القصور وعلى عكس ما يرويه بعض المؤرخين لا تمثل مدن ميزاب الفانية إذ ان هذه الأخيرة تتمثل في كل من: قصر الأحمر شمال القرارة، سكنه الزناخرة وضم في ذروة ازدهاره 300 منزلا. فني بعد كثير الصراعات بين ساكنيه وكل من الفتايت، الدرايسة، العبالية وأولاد مولات الغربي؛ المبرتخ في جنوب القرارة المؤسّسَ سنة 1584، قصري ثيلاز ديث (الصوفية) وبعد أقدم قصور ميزاب ولم يضم سوى حوالي 30 منزلا في ما قبل الحقبة الميزابية وهّجر بعد أن قتل أغلب ساكنيه؛ وأولاول في سفح العطف الذي أنشأنه بنو ميزاب حينما لم يستقبلهم سكان قصر ثيلاز ديث، برج لالة خيرة الذي بناه الشُّرفة وسقط بعد المعارك الطاحنة مع أولاد نسر، كريمة شار الذي استأهله المخادمة، قصر الحنوشة الذي ضم حوالي واحدا وعشرين منزلا ومسجدا، قصر أولاد نسر شمال بونورة العليا، تميزرت وقصر الاوّل تحت مليكة والقصور السبعة الأخيرة تقع جميعها على ضفتي وادي ميزاب.

أسباب فناء هذه القصور نلخصه فيما يلي:

- قصر الأحمر: في القرارة.
- قصر المبرتخ:

يذكر التاريخ حسب المؤرخين الميزاب أنه يوجد 25 قصرا صغيرا منها ما فني ولم يبق له أثر مثل قصر تيرشين في ضواحي بني يزقن، المرقي بين بونورة وبني يزقن، شعبة الضربان في العطف...وغيرهم. أغليها سكنها زناتة، بربر آخرون والفرجومية كما يسميهم بنو ميزاب[1].

"تعلمنا هذه السجلات بالتحديد عن ناس الشمال الذين ظلّوا أتباعا للمذهب الإباضي، وأتوا إلى ميزاب:'' قدم أولاد عبدالله أيضا من الغرب كما قدم بابا عيسى العواني؛ آخرون قدموا من جبل نفوسة

[1] - Ibibd, pp174.

والذين استقر كثير منهم في بن يزقن (وهم أولاد عمي عيسى غير أولئك من غرداية) بينما استقر الآخرون في العطف. آخرون من جربة، قوم عمي سعيد والذبن سكنوا غرداية؛ غيرهم من نفوسة، أولاد يونس والذين ارتحلوا من غرداية نحو القرارة؛ وأخيرا أولاد نايل الذين هم من أولاد رحمون العلال بحيث يدعى سلفهم الأول عبد الله بن عبد الرحمن[1]".

فيما يتعلّق بالهندسة العمرانية لقصور ميزاب فهي أنها جميعها تشترك في أنها بنيت بشكل المدرج فوق قمة التلال الصخرية تتوسطها غالبا المنارة غير أنها من ناحية توزع البنايات وتفرع الشوارع المؤدية إليها فهي تنقسم إلى نوعين: أولهما دائري تتفرع فيه الشوارع إلى اتجاهات مختلفة والآخر مركزي تقود فيه الشوارع إلى مركز المدينة وهو ما نلحظه في كل من غرداية والقرارة الذين يعتبران قصرين نموذجيين في حين تبقى باقي القصور عدا بريان ذات هندسة أقل انتظاما. أما قصر بريان فيتميّز بهندسته الفريدة، إذ أنّ توزع العمران فيه مميّز بثلاث شوارع رئيسية (الشارع الفوقاني، الوسطاني والتحتاني) تقسم المدينة إلى ثلاث أحياء كبرى متصلة فيما بينها عبر شوارع فرعية تقسم بدورها المنازل إلى مربعات منتظمة.

تشترك جميع ميزاب في احتوائها في الغالب على مسجد واحد تعلوه المأذنة المربعة ولا يمكن – للكاتب حسب قوله– تفسير سبب اختيار الهندسة المربعة لها أو إلى ماذا قد ترمز؛ في حين أن قصرا واحدا يستثني قاعدة المسجد الواحد وهو قصر العطف الذي بني فيه مسجدان وذلك لأسباب دينية اجتماعية رواها الكاتب في المقال. قصر بونورة أيضا يحتوي على مسجدين اثنين غير أنه لا يمكن اعتبار ذلك فعليا إذ أن كل واحد منهما موجود في قصر مختلف؛ فالأول في بونورة الفوقانية أين يوجد حطام القصر القديم والآخر في بونورة التحتانية أين يتواجد القصر الحالي.

بوابات القصور في ميزاب يمكن اعتبارها معالم بحق إذ تتمتع بهندسة بارعة وجمال أخّاذ، تتميز بحجمها الكبير الذي تعلوه غرف صغيرة للحراسة. من بين أجمل هذه الأبواب نذكر برج الزوخ في القرارة، باب الغربي في بني يزقن، باب الجديد في العطف وباب التحتاني وباب العميدون في مليكة.

[1] - Ibid, pp 175.

المقابر في ميزاب أيضا لها طابع فريد فالقبور فيها مبنية بالطين غالبا وتتناثر فوق كل منها أواني فخارية تخص الميت والتي يضعها بنو ميزاب فوق قبره وذلك علامة له ولتسهيل التعرف عليه في حين يكون قبور الأولياء والأشخاص ذوي الشأن ذات بنيان مميز بالحجم غالبا فتكون بارزة من بين القبور المجاورة.[1]

وفي حدود المدينة، تتواجد مجموع الأبراج المبنية خلال أسوار الحماية والمخصصة للحراسة والدفاع، تتميز بشكلها المربع المشابه للمآذن والذي هو طابع عمراني مميز لميزاب، هذه الأبراج مبنية على طابقين ونذكر منها نموذجا ميزا وهو برج كركار الواقع بين مليكة وبني يزقن.[2]

من خلال هذا المقال، يحاول هيغوت اختصار بلد ميزاب في سطور عبر ذكر تاريخ تأسيس قصورها وهندسة مدنها وأهم معالمها، ومميزات هندستها وما ذلك إلا دليل على تفرّدها عن باقي المدن الجزائرية الأخرى في ذات الحقبة من الزمن وما هو إلا دليل آخر على تنوع التنوع الاجتماعي والعمراني في الجزائر كلها.

[1] - Ibid, pp 184.
[2] - Ibid, pp 184.

خاتــمة

خاتـمة:

كخلاصة لهذا الطرح وختام لدراستنا برمتها،يمكننا أن نستنتج من مجموع الفصول التي درسناها وجملة المباحث التي أدرجنا فيها مختلف النقاط المتعلقة بمنطقة ميزاب وكتابات الأجانب عنها ما نلخصّه في النقاط التالية:

- تسمية بلاد الشّْبْكَة مشتقة من وصف علمي للطبيعة الجغرافية للمنطقة، إذ هي عبارة عن تقاطع الصخور المشكلة لها على شكل شبكة منتظمة ومنه اشتق اسمها بلاد الشّْبْكَة[1].
- تسمية وادي ميزاب أُشتقت بدورها نسبة إلى قبائل بني مصعب بمختلف التسميات الأخرى الواردة خلال التاريخ،والذين هم الآخرون أيضا سكنوا المنطقة قبل وعمّروها قبل سقوط مدينة سدراتة فاشتقت التسمية نسبة إليهم[2]. هذا من جهة، أما من جهة أخرى فيذكر بعض المؤرخين أن بني ميزاب يشتق اسمهم نسبة إلى الأرض خلاف القول الأول؛ فميزاب الوادي الموجود حاليا في شمال صحراء الجزائر ومركزه الأكبر في غرداية هو ما ينسب إليه تسمية أهل المنطقة فسمّوا بني ميزاب. وعليه فحوصلة لموضوع الإسم، لدينا قولان: أولهما ينسب اسم من السكان إلى الأرض والآخر مخالف له وينسب اسم السكان إلى الأرض التي استوطنوها وعمروا بها.
- شهدت منطقة وادي مزاب عدة زيارات لشخصيات أوروبية ورحالة أمثال إيميل ماسكوراي سنة 1878 وموتيلانسكي سنة 1885وغيرهم، وقد كتبوا عنها بحسب رؤيتهم لها ونظرتهم المستشرقة عنها وقدموا تاريخها بعد بحثهم وزيارتهم والذي تمثلت كتحقيق لما كتبه أبو زكريا بقلم ماسكوراي وترجمة لرواية سليمان بن شتيوي على يد موتيلانسكي في تاريخ القرارة ومقالات عن القصور جميعها بقلم هيغوت وغيرهم آخرون. نظرتهم استخلصت في وصف مجتمع صحراوي متميز بخاصيته الدينية التي ذكروا جميعهم تشابهها من ناحية صرامتها وإحكامها بالطابع الكنسي

[1] - يوسف بن بكير حاج سعيد، مرجع سابق، ص1.

[2] – يحي معمر، مرجع سابق، ص 301.

المسيحي[1]، وبطابعه الاجتماعي والاقتصادي الذي ساهم في تطويره وازدهاره بوتيرة سريعة مميزة. وهذه الكتابات لا يمكن إهمالها أو تجاهل أهميتها إذ باعتبارها مصادر أجنبية فهي تنطوي تحت راية الاستشراق الذي تعد مصادر على قدر كبير من المصداقية والموضوعية.

- لا يزال يعتبر تاريخ منطقة وادي ميزاب نادرا في الأرشيف وغالبيته مجهولا تقريبا وغير معروف لندرة المصادر بصفة عامة وتلك التي يُشهد بموثوقيتها ومصداقيتها إلى جانب أنه لا تتوفر إلا وثائق قليلة ممكن غير أنه صعب الوصول إليها للأسف الشديد، وهذا ما يجعل من المنطقة تفتقر كثيرا إلى تراث تاريخي محلي فضلا عن أجنبي يستند عليه في دراسة ما يتعلق بها من تاريخ.
- للسبب سالف الذكر، وفضلا عن عدم وجود دراسات تُعنَى بالموضوع فلا تزال منطقة وادي ميزاب منطقة دراسة خصبة إذ لا تزال كل شؤونها عامرة بالتفاصيل التي من المهم والشيق البحث فيها ودراستها.
- فمن الناحية الطبيعية، منطقة وادي ميزاب منطقة مميزة بخصائصها الطبيعية مناخا وطقساً ومصادر طبيعية من أودية وزراعية كالنخيل وإنتاجية كالتمور وغيرها وصناعية...إلخ، وكلها مواضيع قابلة للدراسة بشكل موسّع يمنح ميزاب ثراءا تاريخيا وتراثيا أكبر.
- ومن الناحية الاجتماعية، المجتمع الميزابي مجتمع متفرد بعاداته وتقاليده القديمة والحديثة، وتركيبته البشرية التي يتميز بها الميزابي (إباضيا أم مالكيا) عن غيره من سكان الصحراء إذ لكل منهما جانب متميز يثري التاريخ ويساهم في التنوع الاجتماعي لها.
- أما ثقافيا، فبني ميزاب مجتمع ذو ثقافة هي الأخرى متفردة تستحق التفاتة بحثية خاصة للتمكن من الاستزادة منها.

[1] -L'Afrique occidentale, Paul SOLEILLET, Avignon imprimerie de E Segun Ainé, 1877, pp74.

وعليه، فدراستنا المنجزة لا تعتبر سوى لبنة أولى وخطوة خجولة في دراسة منطقة ميزاب ذات الامتداد الزماني والمكاني الواسع والتي من خلالها نأمل المساهمة في إثراء تاريخها والتحفيز على البحث فيها مستقبلا.

الملاحق

ملحق 01: خريطة قصور ميزاب (وادي ميزاب)[1]

[1] – خريطة قصور وادي ميزاب، المركز الثقافي للوثائق الصحراوية غرداية الجزائر ، العلبة الأرشيفية رقم 01243501، رقم الوثيقة 0492002137

ملحق 02: معاهدة الحماية بين الدولة الفرنسية ومنطقة وادي ميزاب [1]

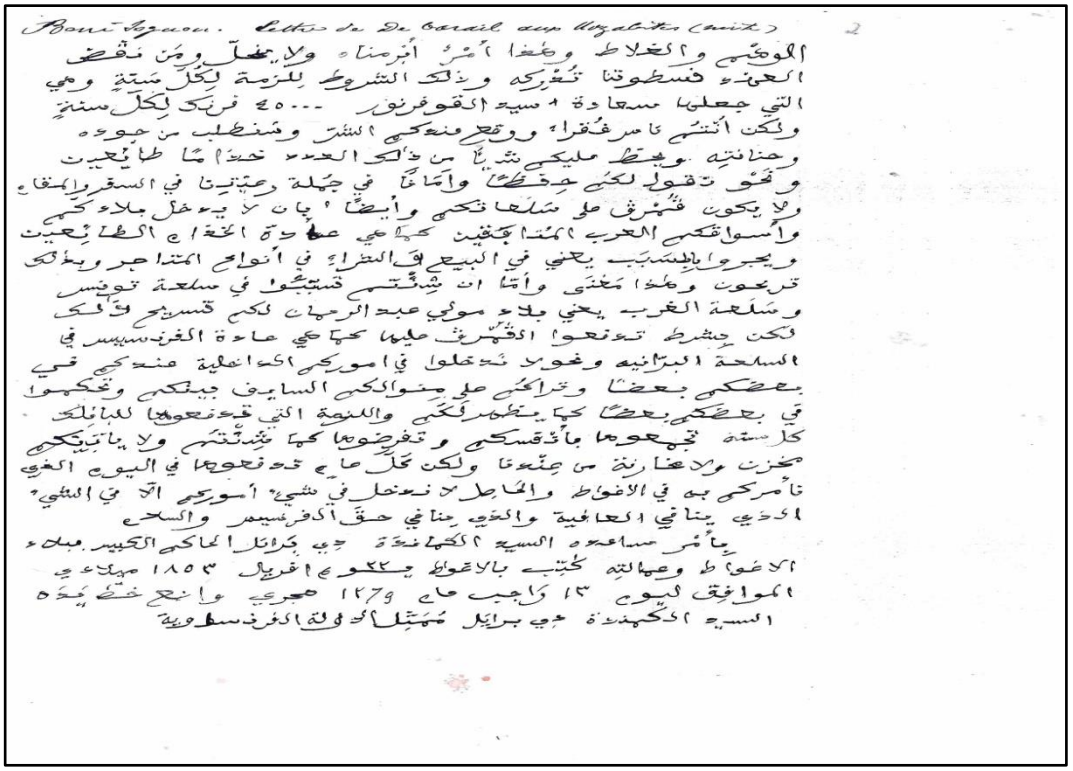

[1] – معاهدة الحماية بين الدولة الفرنسية ومنطقة وادي ميزاب، المركز الثقافي للخرائط بالجنوب، غرداية.

ملحق 03: الصحراء الجزائرية، جوزيف دوماس[1]

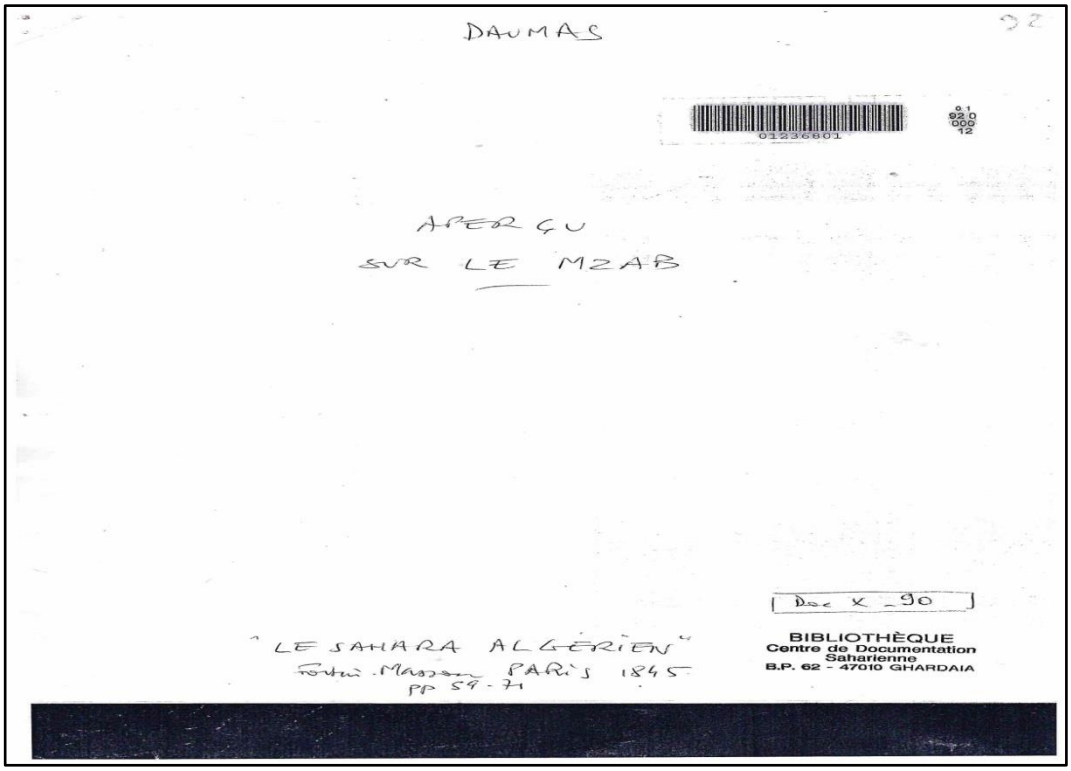
DAUMAS

01236801

APERÇU
SUR LE MZAB

"LE SAHARA ALGÉRIEN"
Fortin-Masson PARIS 1845
PP 59-71

Doc X_90

BIBLIOTHÈQUE
Centre de Documentation
Saharienne
B.P. 62 - 47010 GHARDAIA

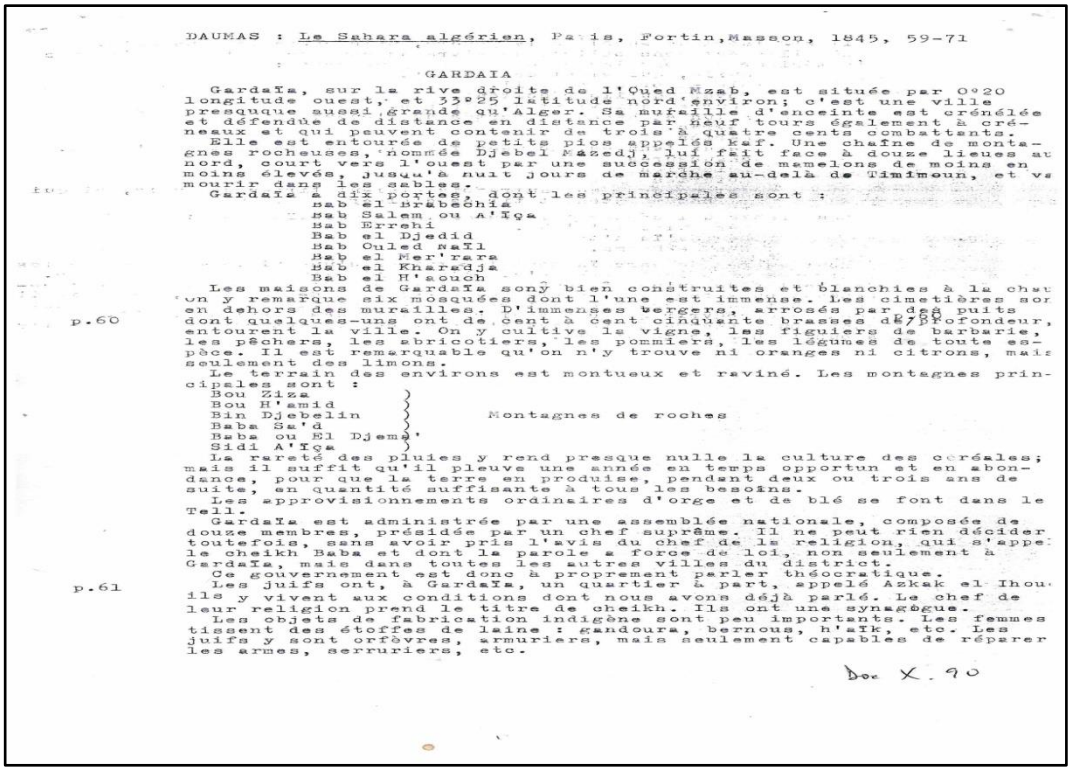
DAUMAS : Le Sahara algérien, Paris, Fortin,Masson, 1845, 59-71

GARDAIA

Gardaïa, sur la rive droite de l'Oued Mzab, est située par 0°20 longitude ouest, et 33°25 latitude nord environ; c'est une ville presquque aussi grande qu'Alger. Sa muraille d'enceinte est crénélée et défendue de distance en distance par neuf tours également à créneaux et qui peuvent contenir de trois à quatre cents combattants.

Elle est entourée de petits plos appelés kaf. Une chaîne de montagnes rocheuses, nommée Djebel Mazedj, lui fait face à douze lieues au nord, court vers l'ouest par une succession de mamelons de moins en moins élevés, jusqu'à huit jours de marche au-delà de Timimoun, et va mourir dans les sables.

Gardaïa a dix portes, dont les principales sont :

Bab el Brabchia
Bab Salem ou A'Iça
Bab Errehi
Bab el Djedid
Bab Ouled Naïl
Bab el Mer'rara
Bab el Kharadja
Bab el H'souch

Les maisons de Gardaïa sont bien construites et blanchies à la chaux on y remarque six mosquées dont l'une est immense. Les cimetières sont en dehors des murailles. D'immenses vergers, arrosés par des puits

p.60 dont quelques-uns ont de cent à cent cinquante brasses de profondeur, entourent la ville. On y cultive la vigne, les figuiers de barbarie, les pêchers, les abricotiers, les pommiers, les légumes de toute espèce. Il est remarquable qu'on n'y trouve ni oranges ni citrons, mais seulement des limons.

Le terrain des environs est montueux et raviné. Les montagnes principales sont :

Bou Ziza)
Bou H'amid)
Bin Djebelin) Montagnes de roches
Baba Sa'd)
Baba ou El Djemâ'
Sidi A'Iça)

La rareté des pluies y rend presque nulle la culture des céréales; mais il suffit qu'il pleuve une année en temps opportun et en abondance, pour que la terre en produise, pendant deux ou trois ans de suite, en quantité suffisante à tous les besoins.

Les approvisionnements ordinaires d'orge et de blé se font dans le Tell.

Gardaïa est administrée par une assemblée nationale, composée de douze membres, présidée par un chef suprême. Il ne peut rien décider toutefois, sans avoir pris l'avis du chef de la religion, qui s'appelle le cheikh Baba et dont la parole a force de loi, non seulement à Gardaïa, mais dans toutes les autres villes du district.

Ce gouvernement est donc à proprement parler théocratique.

p.61 Les juifs ont, à Gardaïa, un quartier à part, appelé Azkak el Ihoudia y vivent aux conditions dont nous avons déjà parlé. Le chef de leur religion prend le titre de cheikh. Ils ont une synagogue.

Les objets de fabrication indigène sont peu importants. Les femmes tissent des étoffes de laine : gandoura, bernous, h'aïk, etc. Les juifs y sont orfèvres, armuriers, mais seulement capables de réparer les armes, serruriers, etc.

Doc X.90

[1] - Joseph DUMAS, Le Sahara Algérien (Aperçu sur le Mzab), N° de la boite d'archive 01236801, N° du document : 0192000012, Centre de Documentation Saharienne, Ghardaïa, 2021.

الفهارس العامة

الأعلام:

أحمد توفيق المدني[1]: ولدسنة1899 في تونس، كان مؤرخا ومناضل سياسي من بين مؤلفاته تقويم المنصور في خمسة أجزاء، كتاب الجزائر، جغرافية القطر الجزائري، توفي 18أكتوبر 1983م.

الأمير عبد القادر[2]: ولد الأمير عبد القادر سنة 1826 في الرابع والعشرين من شهر ماي بمعسكر، كان عالما فقيها ومجاهدا ضد الاحتلال الفرنسي ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة؛ توفي سنة 1883 في منفاه بسوريا.

إيميل ماسكوراي[3]: ولد في 20 مارس سنة 1843 ب-روان- شمالي فرنسا، كبر فيها ودرس في ثانويتها وبعدها في جامعة سانت-بارب في الحي الخامس في باريس واشتغل أثنائها سكرتيراً للفيلسوف الفرنسي فيكتور كوزان. تخرّج من كلية المعلمين العليا سنة 1866 وحصل على اعتماديته في التاريخ والجغرافيا فيها ثم في سنة 1869 عُين مدرساً في مدينة باستيا بجزيرة قورسقة.عين مدرسا في ثانوية الجزائر بعد قضاء فترة خدمته العسكرية فيها ما بين عامي 1870 و1871. توفي ماسكوراي يوم 19 أغسطس 1894 بمقاطعة نورمنديا بمسقط رأسه.

بحاز ابراهيم[4]: من مواليد 14 أوت 1956م الموافق ل03 محرم 1376هـ، باحث من الجيل الثاني في مجال البحث في التاريخ الوسيط، تحصل على شهادة الباكالوريا سنة 1977 ثم على شهادة ليسانس تخصص تاريخ سنة 1980 من جامعة منتوري بقسنطينة وثم شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط من جامعة قسنطينة سنة 1997؛ أستاذ التعليم العالي بجامعة غرداية تخصص تاريخ إسلامي وسيط.

---

[1] - حاج عبد القادر يخلفن، المؤرخ أحمد توفيق المدني ومذكراتهن، مجلة العصور الجديدة، العدد 3 -4، عدد خاص، 2011، 1433هـ، ص 175- 188.

[2] - مجلة المعيار، العدد 2، ديسمبر 2010، ص 164- 182

[3] - عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق ص549.

[4] - مجلة القرطاس للدراسات الفكرية والحضارية، العدد 02، 2020، ص14-15-16.

بول سولاييه[1]: ولد بول سولاييه بفرنسا سنة 1812، كان مولعا ومهتما باكتشاف وزيارة الصحراء الجزائرية إذ بدأ التحضير لرحلته منذ سنة 1866.

جوزيف دوماس[2]: ولد يوم 14 جويلية 1803 بمدينة ديلموند بسويسرا، انضم لقوات الجيش وهو ابن التاسعة عشر. كانت أولى بعثاته إلى الجزائر سنة 1835 ضمن إرسالية الفرقة الثانية لإفريقيا.

خليفة بن أبغور[3]:عاصر 5هـ، 1012من أسس مدينة تاجنينت العطف في ميزاب، وهي أقدم مدن ميزاب حالية النشأة.

السيد زيس[4]: أستاذ في مدرسة الاستشراق الفرنسي في الجزائر التي أُفتتحت سنة 1880 والمعروفة بمدرسة الآداب العليا؛ كان مهتما بالترجمة والنشر وتخصص في الجانب القضائي الفرنسي الذي استحوذ لاحقا على القضاء الإسلامي.

الشيخ أبي إسحاق أطفيش[5]: ولدفي 103هـ عالم من بني يزقن بميزاب أخذ العلم عن عمه قطب الأئمة العلامة أطفيش، له عدة منجزات في مجالات عدة في الصحافة والتحقيق وتأليف الكتب والفتاوى وعمله في السياسة والعمل الإسلامي، توفى في 26 ديسمبر 1965م.

الشيخ مبارك الميلي[6]:ولدسنة1898 في الميلية، من رواد الحركة الإصلاحية وعالما مؤرخا، له نشاط صحفي كتب عدة مقالات منها العقل الجزائر في خطر، الشرك ومظاهره وكتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث بجزئيين، توفي 1945م.

[1] – عبد القادر بوباية، مرجع سابق، ص 159.

[2] - هرباش زاجية، مرجع سابق، ص 29 – 30.

[3] – معجم أعلام الاباضية، ج2،ط2، ص 135.

[4] – هرباش زاجية، مرجع سابق، ص 29 – 30

[5] – معجم أعلام الاباضية ، ج2،ط2، ص ص 24- 25.

[6] – ، بلقاسم ميسوم، مبارك الميلي رجل الإصلاح ومؤرخ الجزائر، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 1، جانفي-ديسمبر 2007،جامعة مُحَمَّد خيضر، بسكرة، ص145-151.

الشيخ مُحَّد أطفيش[1]: مُحَّد بن يوسف بن عيسى اطفيش يعد أشهر عالم اباضي بالمغرب الاسلامي في العصور الحديثة، ولدسنة1821م في عائلة مشهورة بالعلماء من عشيرة آل باحُمَّد ببن يزقن، له عدة مؤلفات في تفسير القرآن والتجويد والحديث والسيرة وأصول الفقه والتاريخ، توفي في سنة 1914م.

ليون الإفريقي[2]:الحسن بن مُحَّد الوزان الزياتي ولد في غرناطة 1485 يعتبر مؤرخا ورحالة له عدة مؤلفات من معاجم وتراجم ومراجع جغرافية منها وصف افريقيا.

مارمول كاربخال[3]: سائح ومؤرخ إسباني ولد بغرناطة أواخر القرن السادس عشر، كان ضابطا في جيش الإمبراطور شارل الخامس، بعد مغادرة الحملة سنة 1535 التي شنت على تونس، بقي يجوب شمال إفريقيا له عدة مؤلفات.

مُحَّد علي الدبوز[4]: هو مُحَّد بن علي بن عيسى دبوز من مواليد بلدية بريان ولاية غرداية سنة1919، كان معلما وأستاذا ابتدع طرقا حديثة في التدريس، وظلا مرجعا يحتذى به، كان له عدة مؤلفات، توفي سنة1981.

مصعب بن سدمان[5]: من علماء تيهرت الرستمية وأعلامه، عاصر القرن الثاني هجري787م.

[1] – ، معجم أعلام الاباضية من القرن الأول هجري إلى العصر الحاضر، قسم المغرب الاسلامي، ج2، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، 2000م، ص ص399- 405.

[2] – مُحَّد فارس، موسوعة علماء العرب والمسلمين، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1993، ص 188.

[3] – ترجمة مُحَّد حجي وآخرون،الجمعية المغربية للنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 1984، ص 4-5-6.

[4] – الزرويل صالح الشيخ المؤرخ مُحَّد علي الدبوز، منهج تعليمي جديد في زمن قديم مجلة دراسات وأبحاث، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد14، عدد1، جانفي 2022 السنة 14، جامعة غرداية، مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية، ص ص 838- 848.

[5] – معجم أعلام الاباضية، ج 2، ط2، ص 421.

الأماكن

صحراء نوميديا[1]: يرجح نشأتها في القرن 3 قبل الميلاد وهي مملكة قديمة تحتل رقعة واسعة من بلاد المغرب من وادي ملوية غرب بالجزائر إلى ليبيا شرقا وجنوبا جتوليا (يرجح أنها منطقة الصحراءالكبرى)

تيكورارين[2]: تعني الثكنات العسكرية وتسمى الآنكورارة (قورارة) شمال توات (أدرار) حاليا.

ورجلان: منطقة ورقلة وضواحيها حاليا.

سدراتة[3]: تقع مدينة سدراتة على بعد 14 كلم جنوب مدينة ورقلة حاليا ولم تكشف عن آثارها إلا في نهاية القرن 19م، والمعطيات التاريخية قليلة جدا حول هذه المدينة، يرجح تاريخ تأسيسها على ما بعد سقوط الدولة الرستمية 296هـ/ 909م أغلب الظن.

المبرتخ: وهو أول قصور مدينة الحالية القرارة تأسيسا سنة 1584.

[1] – مُحَمَّد الهادي حارش، مملكة نوميديا، دراسة حضارية من أوائل القرن التاسع إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، ب ط، دار هومة للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2013، ص 6.

[2] – مرمول كربخال: إفريقيا ج3، ص 163.

[3] – الدكتور مُحَمَّد لخضر عولمي، جامعة قالمة، مجلة المنبر للتراث الأثري، العدد3، 2014، ص 309- 310.

المصادر والمراجع

1- الشيخ مُحَّد بن يوسف اطفيش، الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل واد ميزاب، نسخة مخطوطة، بط، ب م ن، 1326هـ.

المخطوطات والوثائق الأرشيفية الأجنبية:

1- Joseph Dumas, Aperçu sur le Mzab, Centre de documentation saharienne algérienne, Ghardaïa, Numéro du dossier 0192000012, boite 01236801.

المصادر العربية :

1- ابن خلدون عبد الرحمان ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 7، دار الفكر، 2000.

المصادر الأجنبية:

1. Joseph. HUGUET, Le pays du Mzab, Bulletin de la Société Géographie d'Alger, Salle des Marieages de la Mairie d'Alger, 09 Décembre 1898.

2. Joseph. HUGUET, Les conditions générales de la vie au Mzab. La médecine et les pratiques médicales indigènes. In: Bulletins etMémoires de la Société d'anthropologie de Paris, V° Série. Tome 4, 1903.

المراجع العربية :

1– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي – الجزء السادس، دار الغرب الإسلامي.

2– أحمد التوفيق مدني، كتاب الجزائر، بدون طبعة، ب م ن، الجزائر، 1350هـ.

3– بكير بن سعيد اعوشت، مزاب في ظل الحضارة الإسلامية دينيا تاريخيا اجتماعيا، ط1،ب م ن، غرداية الجزائر، 1988.

4– الحسن بن مُحَّد الوزاني الفاسي، وصف افريقيا، ج2، ترجمة مُحَّد حجي وآخرون، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1983.

5– د. شحاتة أبو زيد شحاتة، مبدأ المساواة في الدساتير العربية في دائرة الحقوق والواجبات العامة وتطبيقاتها القضائية، دار النهضة العربية، مصر، 2001.

6– د.الزياي مُحَّد فتح الله، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط1، 1984.

7– سعيد إدوارد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط2، بيروت – لبنان، 1995.

8– علي يحي معمر، الاباضية في موكب التاريخ، مراجعة الحاج سليمان بن الحاج إبراهيم بابزيز، ط3، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 2008م.

9– مُحَّد الهادي حارش، مملكة نوميديا، دراسة حضارية من أوائل القرن التاسع إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، ب ط، دار هومة للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2013.

10– مرمول كربخال: إفريقيا ج1، ج2، ج3. ترجمة مُحَّد حجي وآخرون الجمعية المغربية للتأليف والنشر، الرباط المغرب، 1988،ص 163.

11– يوسف بن بكير حاج سعيد، تاريخ بني ميزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، الطبعة 4، المطبعة العربية لخدمة التراث والثقافة، غرداية ج، 2017– 1438

المراجع بالأجنبية

1- A de Calassanti MOTYLINSKI, Guerrara depuis sa fondation, Apolphe JOURDAN, Imprimerie-Libraire de l'Académie, Alger, 1885.

2- Claude PAVARD, Lumières du Mzab, De Lroisse 113, Rue de Paris, 92100, Boulogne- Billancourt, France, 1974.

3- Emile MASQUERAY, Chronique d'Abou Zakaria, Imprimerie de l'association ouvrière V. AILLAUD et C, Alger, 1879, pp. VIII. (Pdf)

4- Eugéne Dumas, Le sahara Algérien, Etudes Géographiques, statistiques et historiques sur la région sud des établissements Français, Paris, 1845.

5- L'Afrique occidentale, Paul SOLEILLET, Avignon imprimerie de E Segun Ainé, 1877.
6- M. ZEYS, Législation mozabite - son origine, ses sources, son présent, son avenir- , Adolphe Jouradn, Libraire-Edituer (Imprimerie-Librairede l'Académie), 1886, Alger.

الأطروحات والرسائل والمذكرات الأكاديمية:

1– بلحاج بن بانوح معروف، العمارة الدينية الإباضية بمنطقة وادي ميزاب من خلال بعض النماذج، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه دولة في تاريخ العمارة الإسلامية، كلية الآداب و ع إ إ ج، قسم علم الآثار، جامعة تلمسان، 2002، الجزائر.

2– صالح بن اعمر اسماوي، نظام العزابة ودورها في الحياة الاجتماعية والثقافية في وادي مزاب، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي، تحت إشراف د موسى لقبال، معهد التاريخ جامعة الجزائر، 1986– 1987.

3– ناصر بلحاج، النظم والقوانين والأحكام العرفية بوادي ميزاب في الفترة الحديثة، رسالة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، 2013 /2014.

المجلات والدوريات العربية:

1– بلقاسم ميسوم، مبارك الميلي رجل الإصلاح ومؤرخ الجزائر، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 1، جانفي، ديسمبر 2007، جامعة مُحَمَّد خيضر، بسكرة.

2– حاج عبد القادر يخلفن المؤرخ أحمد توفيق المدني ومذكراتهن مجلة العصور الجديدة، العدد 3 –4، عدد خاص، 2011، 1433هـ.

3– رفاف شهرزاد، الاستكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية من القرن 19م، مدارات تاريخية، دورية دولية محكمة ربع سنوية، المجلد الأول، عدد خاص، أفريل 2019.

4– الزرويل صالح الشيخ المؤرخ مُحَمَّد علي الدبوز، منهج تعليمي جديد في زمن قديم مجلة دراسات وأبحاث، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد14، عدد1، جانفي 2022 السنة 14، جامعة غرداية، مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية، ب ط، ب م ن، 1326هـ.

5- طاعة مصطفى، سعيود ابراهيم، حواضر وادي مزاب عبر التاريخ، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ جامعة معسكر الجزائر 2007، العدد الأول، مجلد 17، عدد خاص.

6- عبد القادر بوباية، دور الرحالة والمستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، مجلة العصور، العدد 5/4، ديسمبر 2003 - جوان 2004.

7- العربي قلايلية، البعد الإنساني في شخصية الأمير عبد القادر من خلال كتاب الأمير عبد القادر، مجلة المعيار، العدد 2، ديسمبر 2010.

8- المجلة الجزائرية للعلوم السياسية والعلاقات الدولية، العدد 3، ديسمبر 2014.

9- المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد14، عدد1، جانفي 2022 السنة 14، جامعة غرداية، مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية.

10- مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، مجلد4، العدد1، جانفي 2021.

11- مجلة المنبر التراث الأثري، العدد3، 2014.

12- مجلة حياة دورية فكرية محكمة يصدرها معهد الحياة وجمعية الثرات، القرارة غرداية المطبعة العربية، نهج طالبي أحمد غرداية الجزائر، العدد1 , 22 ، 1998.

الموسوعات والمعاجم:

1- ابن منظور، لسان العرب، تح: عبدالله على الكبير؛ مُحَمَّد أحمد حسب الله؛ هاشم مُحَمَّد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة – مصر.

2- الفيروزآبادي مجدالدين مُحَمَّد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح:مُحَمَّد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت – لبنان.

3- معجم أعلام الإباضية من القرن الأول هجري إلى العصر الحاضر، قسم المغرب الإسلامي، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 2000م.

4- معجم مصطلحات الإباضية ، مجموعة من الباحثين،ج 2، ط 2، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، 2012م.

5- عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط 03، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، 1992.

6- مُحَمَّد فارس، موسوعة علماء العرب والمسلمين، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1993.

المواقع الإلكترونية:

1-موقع آت مزاب، http://www.atmzab.net

2-موقع البوابة الجزائرية للمجلات العلمية www.asjp.cerist.dz

3-موقع المعاني، http://www.almaany.com

4-موقع المكتبة الوطنية الفرنسية، www.gallica.bnf.fr

5-موقع بيرسي للمجلات والدوريات www.persee.fr

الأطروحات والرسائل والمذكرات الأكاديمية الأجنبية:

1- Emile MASQUERAY, Formation des cités chez les populations sédentaires (Kabyles du Djurdjura, Chaouia de l'Aouras, Les Beni Mezab) – Thèse présentée à la faculté des lettres de Paris, Ernest Leroux, Editeur, Paris, 1886.

المجلات والدوريات الأجنبية:

1- ZEYS, Voyage d'Alger au M'zab, Magasine du «le tour du monde».

ملخص:

في هذه الدراسة، نحاول من خلالها التوصّل إلى استخلاص تاريخ منطقة الشبكة والمعروفة بمنطقة وادي ميزاب كذلك عبر عيون الأجانب ومنظورهم الغربي لها وذلك خلال القرن التاسع عشر ميلادي/الثالث عشر هجري (1800م/1300هـ).

تهدف الدراسة إلى التعرف إلى منطقة وادي ميزاب عبر الخوض في كتابات الأجانب الذي قدموا إليها أثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر خلال القرن التاسع عشر فمن جهة بهدف دراستها واكتشافها ومنه ومن جهة أخرى لإحكام السيطرة عليها وتسهيل إدارتها كما هو الحال في بقية أرض الوطن.

منطقة ميزاب التي أثارت إعجاب الرحالة والمكتشفين أمثال ماسكوراي وموتيلانسكي وهيغوت وغيرهم فكتبوا عنها ما يلم بجميع شؤونها من وجهات نظر جغرافية، دينية، اجتماعية، اقتصادية وحتى إستراتيجية عسكرية فتوصلوا بذلك إلى إنجاز تقارير غنية بمعلومات تؤكد تميز ومنطقة وادي ميزاب وتفردها كمجتمع قائم بذاته.

Abstract :

In this study, that through it, we aim to conclude the history of the region called Chebka also known as Oued Mzab through the eyes of the foreign and their own western perspective during the XIX^{e} A.J/XIII Hijri (1800AJ/1300Hj).

The study also aims to learn about the region’s histroy by studying the foreign writings that came to it within the french colonialism to Algeria for the purpose to study and discover it from one side, and from the other to know best how to control it and rein it the best way possible as it is to the rest of the country.

Mzab region that impressed the traverlers and the explorers as Masqueray and Motylinsky and Huguet and others sot hey wrote all about it in geographical, relegious, social, economical and even stratigic army point of views that they achieved a rich confirming reports of the distinction and excellence of the unique Mzab’s society.

فهرس المحتويات العام

فهرس المحتويات العام:

العنوان.....**الصفحة**

الواجهة.....

الإهداء.....

الشكر.....

الرموز والاختصارات.....

المقدمة.....أ

الفصل الأول.....**14**

المبحث الأول.....**15**

1- جغرافية ميزاب في كتابات ليون الإفريقي ومارمول كاربخال.....15

2- جيولوجيا بلاد الشبكة.....15

3- الطقس والمناخ في وادي ميزاب.....16

4- الزراعة في ميزاب.....17

5- المياه في منطقة ميزاب.....18

المبحث الثاني:تسمية وأصل سكان منطقة وادي ميزاب.....**20**

أولا: تسمية المنطقة بوادي ميزاب.....20

ثانيا: أصل السكان.....22

المبحث الثالث: تأسيس قرى ومدن واد ميزاب.....**25**

الفصل الثاني: ميزاب من خلال آراء الأجانب.....30

المبحث الأول: كتابات السيد جوزيف دوماس.....31

أولا: التعريف بشخصية جوزيف دوماس.....31

ثانيا: منطقة وادي ميزاب من خلال كتاب دوماس "الصحراء الجزائرية" 1845.....33

المبحث الثاني: كتابات السيد بول سولاييه.....43

أولا: التعريف بشخصية بول سولاييه.....43

ثانيا: منطقة وادي ميزاب من خلال كتاب "إفريقيا الغربية".....44

المبحث الثالث: كتابات السيد زيس.....52

أولا: التعريف بشخصية السيد زيس.....52

ثانيا: منطقة وادي ميزاب من خلال كتابات السيد زيس.....52

1- مقال "من الجزائر العاصمة إلى ميزاب".....52

2- كتاب التشريعات الميزابية.....57

الفصل الثالث: منطقة ميزاب في كتابات الأجانب.....63

المبحث الأول: غرداية من خلال عيون إيميل ماسكوراي.....63

أولا: التعريف بشخصية إيميل ماسكوراي.....63

ثانيا: كتاب تاريخ أبو زكريا – ترجمة وتحقيق: إيميل ماسكوراي.....64

ثالثا: كتاب "تشكيل المدن لدى السكان المستقرين في الجزائر (قبائل جرجرة، شاوية الأوراس، بني ميزاب)".....74

المبحث الثاني: غوستاف موتيلانسكي.....79

أولا: التعريف بشخصية موتيلانسكي.....79

ثانيا: كتاب "القرارة منذ نشأتها".....79

المبحث الثالث: منطقة ميزاب من خلال مقالات جوزيف هيغوت.....96

أولا: التعريف بشخصية السيد جوزيف هيغوت.....96

ثانيا: مقال "ظروف الحياة العامة في ميزاب، الطب والممارسات الطبية للسكان الأصليين".....96

ثالثا: مقال "بلد ميزاب".....100

الخاتمة.....106

الملاحق.....109

الفهارس العامة.....112

المصادر والمراجع.....118

الملخص.....124

فهرس المحتويات العام.....125